٨

روايات عالمية للجيب



قصة : روبين كوك
ترجمة : إيناس النجار
إعداد : د. أحمد خالد توفيق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف

لا نعرف الكثير عن (روبين كوك) سوى أنه طبيب أمراض عيون ، يعيش فى (بوسطون) ، ومحاضر فى مدرسة (هارفارد) الطبية . تخرج فى جامعة (وزليان) ، وكلية الأطباء والجراحين جامعة (كولومبيا) ..

والرواية الحالية كتبها عام ١٩٧٧ ، وسرعان ما حولها (مايكل كريشتون) - وهو طبيب آخر - إلى فيلم كابوسى بنفس الاسم ، أثار اهتمامًا عالميًا ، ولعله من الجدير بالذكر ، أنه هو الفيلم الذى أصرّ الرئيس الأمريكى (كارتر) على أن يراه الرئيس الراحل (أنور السادات) ، إبان توقيع معاهدة (كامب ديفيد) كنموذج لما وصل إليه فن السينما فى (أمريكا) ..

يمكلنا القول إن د. (كوك) لا يحمل ذكريات سارّة لمهنة الطبّ .. بل وإنه يحيلها فى روايته الحالية إلى كابوس حقيقى ، ولكنه يقدم فى نهاية الرواية نوعًا من الاعتذار ، عما قدمه فيها من نبوءات مروعة ، (بدأت تتحقق للأسف) .. على اعتبار أن عنده مايدفعه إلى هذا التشاؤم ..

يقول د. (كوك) فى تعليقه الختامى على الرواية :

« رأيت إعلانًا فى جريدة (تريبيون) عام ١٩٦٨ ، يعرض فيه رجل بيع أى جزء من جسده ، لمن يدفع مبلغًا من المال ، يتم الاتفاق عليه . بل إننى رأيت إعلانات من أحياء يبيعون قلوبهم لمن يدفع أكثر ! ..

وفى مراكز الكلى يوجد طابور طويل ، من المرضى القادرين ، ينتظرون أن يجدوا كلى صالحة لزراعتها لهم ، والمشرفون على هذه المراكز ، يعرفون شيئًا اسمه (متلازمة الإجازة) ، حين ترتفع معنويات المرضى كلما دنت إحدى العطلات ، لأنهم يتوقعون حركة سير أكثر .. وحوادث تصادم أكثر .. ومزيدًا من الكلى الصالحة للزراعة ! .. » .

« والحلّ لهذه الكارثة فى رأيى ، هو إيجاد تسهيلات قانونية ودينية أكثر ، لعملية أخذ الأعضاء من المتوفين ، الذين لم تمض ساعة على وفاتهم ، بدلًا من ترك هذه الأعضاء لتلتهمها الديدان أو لهيب المحرقة .. » .

★ ★ ★

كما ذكرنا تحولت هذه الرواية إلى فيلم بنفس الاسم ..

المخرج هو (مايكل كريشتون) الذى تحوّل بعد ذلك إلى التأليف ، فقدم لنا روايات شهيرة من الخيال العلمى ،

المشبع بجوّ الطب ، نذكر منها : (خلية أندروميدا) .. (رجل الأطراف الكهربية) .. (حديقة جوراسيك) ..

قام ببطولة الفيلم الممثلة الكندية (جنفيف بوجولد) مع (مايكل دوجلاس) و (اليزابيث أشلى) ، والممثل العجوز (رتشارد ويدمارك) ..

الموسيقا التصويرية كانت لـ (جيرى جولد سميث) الذى جعل من شريط الصوت كابوسًا حقيقيًا ، يواكب الأحداث ولا ينافسها ..

[ملاحظة أخيرة] ..

نحن لا نهدف إلى أن نقصر سلسلة (روايات عالمية للجيب) على الروايات التى تحولت إلى أفلام سينمائية ، لكننا نحاول أن نقدم روايات مشوّقة ، بها قدر لا بأس به من التسلية والإفادة ، ومن المصادفة أن هذه هى نفس نوعية الروايات ، التى تجذب السينمائيين لتقديمها .. ! ، فالسينما كما نعلم لم تترك رواية صالحة إلا وقدمتها ..

والآن تعالوا نقرأ القصة معًا ..

د . أحمد خالد

١٤ فبراير ١٩٧٦ :

ها هى ذى (نانسى جرينلى) ، ممددة على ظهرها ، فوق منضدة الجراحة بغرفة العمليات رقم (٨) .. وبالرغم من العقاقير العديدة التى حقنوها بها ، قائلين إنها ستسلم عينيها للنعاس ، فقد ظل النوم حلمًا عزيزًا ..

كانت تمقت المستشفى .. ودت لو تصرخ .. تهرع فارّة من هذه الغرفة الكئيبة ، لكنها لم تجرؤ قط ..

جو المستشفى البارد الكئيب .. وتلك الرائحة .. رائحة الموت والمرض ..

إنها السابعة وعشر دقائق .. فى الخارج سماء (بوسطن) ملبدة بالغيوم ، وكشافات السيارات مضاءة فى هذه الساعة من النهار ، بينما الريح الصرصر تصدر نواحها الكئيب .. والمارة يجدّون السير ..

أما فى غرفة العمليات ، فكان الأمر يشبه خلية نحل .. إذ يجب إعداد المريضة وتخديرها ، قبل أن تغدو الساعة السابعة والنصف ..

حوائط غرفة العمليات ، مثل مثيلاتها فى كل الغرف الأخرى ..

البلاط محايد اللون .. والأرضية من (الفينيل) ..
الجراحة : توسيع وكحت للرحم .
المريضة : (نانسى جرينلى) .
طبيب التخدير : (روبرت بيلنج) .
أما باقى الفريق ، فهو معرضة التعقيم (روث) ، وممرضة العمليات (داماتيو) ، والجراح الشاب (جورج ماجور) ، الذى كان فى الغرفة المجاورة يرتدى مريولة الجراحة ..

كان النزف قد بدأ منذ عشرة أيام ..

تجاهلته (نانسى) فى البدء .. ثم انتابها القلق .. بضع مكالمات هاتفية مع الدكتور (ماجور) ، بثت الطمأنينة فى قلبها .. ثم بدأت تشعر بأن الأمر أخطر من مجرد اختلال فى دورتها الشهرية ..

سيارة الإسعاف تحملها إلى المستشفى - دون سرينة ولا تشنج - حيث وجدت نفسها على سرير الفحص فى حجرة الطوارئ ، هى تمقت الفحوص النسائية ، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الشعور بالسعادة ، حين سمعت صوت د . (ماجور) ..

وفى استسلام خضعت للفحص .. الستار الرقيق الذى يفصلها عن الناس المحتشدين فى قاعة الطوارئ ،

يتحرك .. يهتز .. ، ومن حين لآخر ترى وجوه أطفال مجروحين ، وشيوخ منهكين .. ، وعلى الأرض كانت مبولة الفراش ملقاة فى إهمال ، وبها جلطة دموية كبيرة ، يستطيع كل من يريد أن يراها .. فى حين يقف د. (ماجور) يفحصها ، ويثرثر مع الممرضة عن حالة أخرى ..

كان كل هذا قاسيًا مريرًا .. وأغلقت (نانسى) عينيها .. وفى صمت بكت ..

★ ★ ★

والآن .. إضاءة (الفلورسنت) فى غرفة العمليات ، تثبت (نانسى) عينيها عليها ، وتفكر .. سينتهى هذا الكابوس بعد دقائق .. سأعود لدارى بعدها ..

عينان بنيتان صافيتان من خلف قناع ترمقانها :

- هل تشعرين براحة ؟

كانت هذه هى الممرضة (جلوريا داماتيو) وهى تشد الحزام حول ذراع (نانسى) الأيمن ، لتثبته إلى جانبها ..

- نعم ..

قالتها (نانسى) كاذبة .. فالمنضدة غير مريحة على الإطلاق ، ومفعول (الأتروبين) جعل حلقها جافًا ولسانها لزجًا ، كأنما هو مبلل بالصمغ ..

د. (بيلنج) عاكف على جهازه المكوّن من شبكة من

الصلب اللامع ، وأجهزة القياس ، وأسطوانات ملونة من الغاز المضغوط .. ثمة بطاقة بنية كتب عليها (فلوثان) ، وتحتها صيغة كيميائية معقدة ، حاولت أن تقرأها (٢ برومو ـ ٢ كلورو ـ ١ واوا ـ ثلاثى فلورو إيثان) ..

كان د. (بيلنج) بارعًا .. ربما أبرع طبيب تخدير فى المستشفى ، وكان يعرف ذلك جيدًا .. ولم يكن يترك شيئًا للمصادفة ؛ لهذا أعد لنفسه قائمة بالإجراءات ، لا بد من أن يراجعها قبل كل جراحة ..

الخطوة الثانية عشرة ، هى توصيل طرف الخرطوم إلى الجهاز ، وإدخال طرفه الآخر فى كيس التنفس ، الذى يسع من أربعة إلى خمسة لترات هواء ..

الخطوة الثالثة عشرة ، هى الاستيثاق من أن صمامات التحكم كلها فى الاتجاه الصحيح .. ثم يفحص مفاتيح قياس الضغط فى أسطوانتى الأكسجين ، ويتأكد من امتلائهما بالكامل ..

وبيده شرع يضرب على ظهر راحة (نانسى) اليسرى ؛ لتنفر عروقها ..

وغمغم :

ـ ستكون هناك وخزة صغيرة الآن ..

وشعرت بالألم يشتد ثم بدأ يتلاشى .. ولمحت د. (ماجور) يدلف من باب غرفة العمليات هاتفًا فى مرح :

ستنامين بعد قليل يا (نانسى) .. أنت فتاة محظوظة ؛ لأن د. (بيلنج) هو من يخدرك .. وهو خير أطباء مستشفانا ..

قال د. (بيلنج) وهو يوصل قناع الوجه بأنبوب التخدير :

ـ هذا صحيح .. الأنبوب رقم ثمانية يا (جلوريا) .. يمكنك أن تبدأ التعقيم إذن يا د. (ماجور) ؛ لأننا سنكون مستعدين فى تمام السابعة والنصف ..

ـ مرحى ..

ثم إنه سار نحو الباب .. واستدار نحو (روث جنكنز) التى كانت ترتب الأدوات الطبية على المنضدة وقال :

ـ أريد الأدوات الخاصة بى يا (روث) ، لا معدات المستشفى القديمة ..

وخرج قبل أن يتلقى ردًا ..

صوت ضربات قلب (نانسى) يتصاعد ، من جهاز تسجيل ضربات القلب ، والمخطط الذى أوصلوه بها .. على حين ساعدتها (جلوريا) على النزول بجسدها لأسفل ، وعلقت كل ساق من ساقيها ، فى ركاب معلق بحامل معدنى من الصلب ..

غمغم د. (بيلنج) وهو يخرج الهواء الزائد من محقنه :

ـ كل شىء على ما يرام .. ستنامين الآن يا (نانسى) بعد تعاطى (البنتوثال) .. ألا تشعرين بالنعاس الآن ؟

ـ لا أعرف ما المفروض أن أشعر به ..

بدقة بالغة يوصل د. (بيلنـج) محقن (البنتـوثال) بالصمام الوريدى ثلاثى الاتجاهات ، ويسألها أن تعدّ من واحد إلى خمسين ..

كان يتوقع أنها ستغيب عن العالم قبل أن تصل إلى خمسة عشر .. لكنها ظلت تقاوم النعاس ، متمتعة بإرادة لا بأس بها ، مما اضطره إلى زيادة الجرعة قليلًا ..

وفى السابعة وأربع وعشرين دقيقة .. نامت (نانسى جرينلى) للمرة الأخيرة فى حياتها ..

* * *

كان د. (بيلنج) يؤمن بأن الأمور ستسير كما يشتهى .. فالمرأة شابة وصحتها لا بأس بها ، ولقد استوثق من جميع الخطوات .. جعلها تتنفس من خليط من (الهالوثين) و (أكسيد النيتروز) و (الأكسجين) ..

ثم إنه حقنها بسنتيمترين من (السكسينايل كولين) حتى تسترخى عضلاتها ، ويتمكن من إيلاج الأنبوب عبر حنجرتها ..

إن هذا العقار يشابه فى تأثيره سمّ (الكورار) ، الذى يستعمله متوحشو (الأمازون) .. ويحدث شللًا فى عضلات التنفس وعضلات الحلق ، لكن د. (بيلنج) كان يسيطر على الموقف تمامًا ..

بهدوء ورصانة ـ برغم توتر أعصابه ـ يضع قناع (الأكسجين) على وجهها ، ثم أمسك بمنظار الحنجرة (الخطوة رقم ٢٢ فى قائمته) ، وجذب لسانها للإمام .. ثم شرع يحرك طرف اللهاة جانبًا ، ليرى أفضل .. وأولج أنبوب القصبة الهوائية بين الحبلين الصوتيين المحيطين بالحنجرة .. وأوصلها بالكيس ..

وبمجرد أن ضغط على كيس الهواء ؛ شاهد صدرها يعلو ويهبط بنفس القدر .. كل شىء على ما يرام .. إن تنفسها ملكه ..

كل شىء على ما يرام .. وضربات قلبها مستقرة هادئة ..

عليه الآن أن يواصل ضغط الكيس بيده ، ليجعلها تتنفس .. إلى أن ينتهى عمل (السكسينايل كولين) بعد ثمان دقائق .. عندئذ يعود تنفسها ويمكنه أن يسترخى قليلًا ..

والحقيقة أن عملية التخدير ، كانت دائمًا ما تسبب لـ د. (بيلنج) نفس التوتر والقلق ، منذ بدأ حياته المهنية .. لكنه كان يخفى ذلك خلف قناع من الاحتراف والهدوء ..

لكنه لم ينس أن باستطاعته تناول القهوة ، بعد أربعين دقيقة ، حين ينتهى كل هذا .. وظلّ يمنى نفسه بذلك ..

أما د. (ماجور) فجلس هناك بين ساقى (نانسى) ، وتفحص مبيضيها ، ثم أعلن أنهما (برقوقتان) ، وهو الوصف الذى يطلقه دومًا على المبايض الطبيعية ..

قام بتوسيع عنق الرحم برفق ، وأزال الجلطات الدموية بالشفاط ..

وهنا لاحظ د. (بيلنج) تغييرًا طفيفًا ، فى انتظام ضربات القلب ..

وعلى الشاشة أدرك أن النبض تدنى إلى ستين نبضة ..

ضغط الدم قد صار ٩٠/٦٠ ، ولم يدر سببًا لهذا الانخفاض غير المقلق برغم كل شىء .. فليسأل طبيب أمراض (النساء) ..

ـ د. (ماجور) .. هلا توقفت لحظة ؟.. انخفض ضغط الدم نوعًا .. فما هى كمية فقد الدماء عندك ؟

ـ لا يمكن أن تتجاوز نصف اللتر بحال ..

وضع د. (بيلنج) السماعة فى أذنيه .. وغمغم :

ـ غريب !.. إن ضغطها قد صار ٩٠/٦٠ ..

ـ وماذا فى ذلك ؟

ـ لا شىء .. لكنه لم يكن كذلك .. انخفض ولا تفسير عندى ..

ـ لا بأس .. لونها لم يتغيّر ..

لكن د. (بيلنج) ظلّ قلقًا ، يشعر بأن شيئًا ما ليس على ما يرام ..

تحركت حاسته السادسة ، لتنبئه بذلك ، والغريب أنها ـ (نانسى) ـ لم تستعد تنفسها التلقائى ، برغم أن جرعة (السكسينايل) قد انتهى مفعولها بالتأكيد ..

قال د. (ماجور) مطمئنًا :

ـ أنا سأفرغ بعد خمس دقائق ..

تنفس د. (بيلنج) الصعداء وزاد من ضخ (الأكسجين) إلى رئتى (نانسى) ، فقد كان راغبًا فى إنهاء تخديرها بأسرع ما يمكن .. ومن على جبينه مسح حبّات العرق المتزايدة ..

وفى السابعة وست وخمسين دقيقة ، مدّ أصابعه ليفتح جفنى المرأة الشابة ويتفحص حدقتيها ..

كان إنسانا عينيها متمددين تمامًا ..

وتجمد الدم فى عروق د. (بيلنج) ..

كان هناك خطأ ما ..

إن أسوأ كوابيسه قد تحقق ..

★ ★ ★



وفى السابعة وست وخمسين دقيقة ، مدّ أصابعه ليفتح جفنى المرأة الشابة ويتفحص حدقتيها ..

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ٧,١٥ صباحًا :

الثلج يتساقط كقطن مندوف ، والطقس بالغ البرودة ، إذ تدفع الريح الرقائق البللورية نحو الشرفة الصغيرة ، المطلة على شارع (لونجوود) .. والشمس تحجبها سحب كثيفة رمادية ..

وفى فراشها تقلبت (سوزان هويلر) ، بعد نوم احتشد بأضغاث الأحلام ..

كانت فى حجرتها بالطابق الثالث من مسكن المدرسة الطبية ..

لقد أتمت ـ منذ خمسة أيام فقط ـ أول سنتين من دراستها للعلوم الأساسية الطبية ، وأحرزت نجاحًا باهرًا ، حتى أن كراسات محاضراتها غدت ذات صيت بين الطلبة ، والكل يتنافس على اقتنائها ..

كان الجميع يتندرون بمواظبتها على حضور الدروس ، لكن السبب المباشر الذى لم تعلنه قط ، هو أنها ـ وقد اختارت مجالًا يعجّ بالرجال ـ لم تكن قادرة على التغيب دون أن يكون ذلك ملحوظًا .. والحقّ أن (سوزان) كانت

جديرة بالملاحظة .. فهى شابة بالغة الجاذبية فى الثالثة والعشرين من العمر ..

ولنقرب صورتها أكثر للقارئ ، نقول إن شعرها فى لون سنابل القمح ، طويل جدًا ، مما يضطرها إلى عقصه خلف ظهرها كذيل حصان ..

وكان وجهها عريضًا .. بينما كانت عيناها خليطًا من اللونين الأزرق والأخضر ، مع لمسة من البنى ، تتبدل مع تبدل الضوء ..

إنها ذلك المزيج النادر من الجمال والذكاء مع تذوق جيد للأدب ..

وللأسف كان لهذا مثالبه ..

فهى - كما قلنا آنفًا - لا تستطيع التغيب ، دون أن يكون ذلك ملحوظًا ..

بالإضافة إلى أن هذا الجمال ، كان مما يثير حول صاحبته الأقاويل .. ويجعل من لا يعرفها يحسبها ساذجة أو حمقاء ، كمعظم الفتيات الجميلات ..

ولك أن تتصور - إذن - أنه لم يكن لديها أصدقاء كثيرون .. فإن ذكاءها كان يخيف الرجال ، بالإضافة إلى أنه يجعلها تملّ سريعًا كل من تعرفه ، إذ تدرك مدى تفاهته ..

اليوم هو بداية تبدّل حقيقى فى حياة (سوزان) ..

لقد انتهى عهد المحاضرات ، وسيكون عليها أن تتعامل مع مرضى حقيقيين لأول مرة .. وكان هذا يفزعها ..

هى لا تعرف كيف تكون طبيبة .. هى تشك فى قدرتها على عمل شىء سوى القراءة والاستذكار .. ولعل هذا هو ما جعل نومها قلقًا ..

إنها السابعة والربع ..

فى توتر تغلق المنبه جوار فراشها ، وتنزل قدميها لتقف على أرض الحجرة الباردة غير المرحبة ..

إنها حجرتها منذ عامين .. هى بنفسها طلت الجدران بهذا اللون الأصفر الفاتح .. وفضلت تلكم الستائر خضراء اللون .. وألصقت هذه المناظر الطبيعية على الحوائط ..

أما هذا المكتب ذو الخشب العتيق ، فطالما جلست عليه تدرس ، والآن يوجد عليه كتاب عن تشخيص الأمراض السريرى ، قرأته مرتين دون أن يزيد ذلك من ثقتها بنفسها ..

أما قميص النوم الذى ترتديه ، فهدية من أبيها .. كان يحب أن يراه عليها ، وكان يفضلها على أخويها الأصغر منها ، مما أكسبها ثقة بالنفس لا بأس بها .. ثقة كانت بحاجة إليها ؛ كى تجتاز سنى المراهقة الكئيبة ..

وتنهدت إذ تذكرت ..

كان أبوها رجلًا قوى الشخصية كريمًا لطيفًا فى الوقت ذاته ، ولقد فرض شخصيته على الدار ، فتضاءل الجميع .. ومثله شبت (سوزان) ، فوجدت نفسها مرغمة على لعب دور قيادى ، فى كل مراحل حياتها ، برغم أنها لم تحبّ ذلك قط .. كانت تفضل أدوار الظل ..

دخلت الحمام ، ووقفت تتأمل الحسناء ، التى ترمقها من الناحية الأخرى للمرآة .. فردت ذراعيها فى الهواء ، وهتفت محدثة نفسها :

- « ليتك كنت راقصة باليه يا (سوزان) ، بدلًا من هذه المهنة » ..

لكنها كانت تدرك ، أنها لا تريد حقًّا أن تكون راقصة .. هى بحاجة إلى مهنة تمارس فيها قدراتها العقلية ..

لقد كانت (سوزان) جميلة ..

لكنها فتاة عملية .. عملية تمامًا ..

★ ★ ★

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ٧,٣٠ صباحًا :

لم يكن مستشفى (بوسطون) التذكارى متميزًا من الناحية المعمارية .. فقد بنى منذ أكثر من قرن ، بكتل من الحجارة البنية اللون ، التى تراصت بمهارة لكن دون أناقة .. ويتكون المبنى من طابقين ، بهما عنابر عامة واسعة ، لم تعد عملية فى الوقت الحالى ، تتناثر حوله مبان من الطوب الأحمر ذات نوافذ قذرة ..

لكن أحدًا لم يلحظ قبح المستشفى ، ما دام اسمها مرتبطًا فى الأذهان ، بأنها تضم أحدث الأجهزة وأكفأ الأطباء .. ولقد أضفى عليها الأطباء نوعًا من القدسية الأكاديمية ..

وأمام المستشفى كان يظهر جزء من ميناء (بوسطون)، بمياهه السوداء المخلوطة بماء المجارى عفن الرائحة .. يفصله ـ الميناء ـ عن المستشفى فناء من الأسمنت ، تناثرت فيه أوراق الجرائد والعلب الفارغة ..

وفى هذه اللحظة ، بدأت السيمفونية اليومية فى المستشفى ..

واحد وعشرون مبضعًا ، يشقون واحدًا وعشرين نسيجًا بشريًا ، لواحد وعشرين مريضًا يرقدون بلا حراك ،

فى إحدى وعشرين غرفة عمليات .. ذلك اللحن الذى لن يكلّ ولن يصمت قبل الثالثة ظهرًا .. بل ستظل غرفتان تعملان حتى الثامنة مساءً ..

وفى استراحة الجراحين ، تجد هدوءًا تامًا .. فلا يوجد بها سوى رجلين .. أحدهما يقف جوار الحوض ، وقد بدا عليه الوهن والشيخوخة ، أكثر من عمره البالغ الثانية والستين .. كان اسمه (تشستر ـ ب . والترز) ..

ولا أحد يعرف ـ بما فى ذلك (والترز) نفسه ـ ما يدلّ عليه حرف (الباء) فى اسمه .. فقط يعرفون أنه يعمل فى قسم العمليات الجراحية ، منذ خمسين عامًا تقريبًا ، فلم يجرؤ واحد على رفته ، برغم أنه لم يكن يؤدى أى عمل فى الواقع .. وكان يقول دومًا إنه ليس على ما يرام .. وهذا حق .. فهو شاحب اللون كثير السعال ، محاولًا إخراج البلغم من شعبه الهوائية دون جدوى ..

أما الآخر فهو (مارك هـ . بيلوز) ـ و (الهاء) هنا هى اختصار لكلمة (هالبرن) ـ وهو جراح مقيم جاهد كثيرًا ليعمل فى مستشفى (بوسطون) .. وقد أثار حفيظته أن يصل لما يريد ، فيجد شيئًا مثل (والترز) أمامه ..

كان جالسًا على النضد يرشف القهوة ، ويرتب أسماء الطلبة الذين سيقوم بمحاضرتهم : (هارفى جولدبرج) ، (سوزان هويلر) ، (بول كارين) ، (جيوفرى فيرويزر) .. هناك فتاة إذن .. وستمضى معه الشهر القادم .. وحتمًا ستهيم به حبًا ؛ لأنه رياضى .. وطبيب .. ووسيم إلى حدّ ما ..

لقد مرض كبير الأطباء المقيمين ، بالتهاب الكبد الوبائى ، وتلقى (بيلوز) استدعاء من د. (هوارد ستارك) ، رئيس قسم الجراحة فى مكتبه .. وهذا يعنى كارثة .. هل هناك أخطاء ارتكبها ولا يذكر ؟..

لكن (ستارك) كان على غير العادة لطيفًا .. بل وأثنى عليه .. ثم سأله عما إذا كان يرغب فى الإشراف على مجموعة الطلبة ..

ولم يكن ممكنًا رفض طلب لـ (ستارك) ، وإلا كان هذا انتحارًا .. لهذا وافق (بيلوز) فى حماس وبلا تردد ..

وبدأ فى إعداد جدول المحاضرات وتواريخها لهذا الشهر ..

كان هناك اثنان معينان مع (بيلوز) ، وهما من المقيمين الجدد الذين لم يمر عليهم أكثر من عام .. (دانييل كارترايت) و (روبرت ريد) ..

وكانا يعانيان الإحباط، بعد ما زالت عنهما رهبة المسئولية، وعرفا أنهما لا يؤديان دورًا خاصًا فى المستشفى..، وكان (ريد) بالذات، حسَاسًا فى كل ما يتعلق بلون بشرته الأسمر.. وسريعًا فى تفسير كل مطلب زائد منه، على أنه اضطهاد عنصرى..

لهذا كان على (بيلوز) أن يعاملهما بحذر..

على أن الشىء الذى كان يعزيه، هو أنهما سيعاونانه، فى رعاية الطلاب الخمسة، وبالتالى لن يكون الأمر حملًا على كاهله.. بالإضافة إلى أنه سيعرف، كيف يحصل على أقصى منفعة من هؤلاء الطلاب..

نعم.. كان (بيلوز) رجلًا مباشرًا.. ولولا ذلك لما وصل إلى هذه الوظيفة، وسط منافسة عاتية لا ترحم..

★ ★ ★

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة التاسعة صباحًا :

كانت (سوزان هويلر) هى ثالثة ثلاثة، اندسوا فى سيارة (جيوفرى) الجاجوار؛ لتوصيلهم من مساكن الطلبة إلى المستشفى..، ولم تتسع السيارة الضيقة لـ (جورج نايلز) و (هارفى جولد برج) مما اضطرهما إلى ركوب المواصلات العامة، فى وقت الذروة للوصول إلى المستشفى..

وفى المستشفى وقفوا مرتبكين كالأطفال، لا يعرفون كيف الصعود إلى الطابق الخامس، حيث ينتظرهم د. (بيلوز).. وكل طلبة الطب، يصيرون سلبيين سريعى الارتباك، بعد سنى الدراسة الطويلة..

وفى المصعد ـ وقد انحشروا جميعًا ـ، قرّب (جورج نايلز) فمه من أذن (سوزان)، وهمس :

ـ لا أحسبنى سأحب هذا المكان !

ولم يزد.. لكن (سوزان) فهمت تمامًا ما يريد قوله..

كانوا جميعًا يتهيبون هذا المكان.. ويتهيبون ضرورة اتخاذ القرار الصائب.. فهم حقًا يرتدون المعاطف البيضاء، ويبدون كأطباء.. لكنهم عاجزون عن القيام

بأى تصرف .. والسماعات الطبية المتدلية من جيوبهم ، لم تكن تستعمل إلا فيما بينهم ، أو على عدد محدود جدًا من المرضى .. ولم يكن لما درسوه من كيمياء حيوية ، أى دور فى زيادة شجاعتهم .. فمعرفة ما يحدث للجلوكوز فى الخلية ، لا يفيد كثيرًا فى علاج مريض صرع ..

الطابق الخامس أخيرًا ..

تقدمت (سوزان) الآخرين ، متجهة نحو موظف الاستقبال ، الذى ثبت سماعة الهاتف على أذنه ، وشرع يثرثر .. كان المكان كعادته أشبه بخلية نحل ، والممرضات يهرعن هنا وهناك ، يعددن المرضى التالين فى الدور ، أو يعنين بمن انتهت جراحتهم ..

ـ هلا أخبرتنى من فضلك ..

رفع الموظف يده اليسرى مقاطعًا ، وعاد يصرخ فى السماعة :

ـ قل مرة أخرى .. لا أسمعك من الضوضاء حولى .. ماذا ؟.. لقد سلمت الأمر بنفسى .. إذا لم تكن لديك (بلازما) ، كان يجب أن تأتى لتقول ذلك .. إن الجراحة ستبدأ فى الحادية عشرة ..

ثم نظر إلى (سوزان) :

ـ أية خدمة ؟

ـ نحن طلبة .. ونريد أن ...

أشار بقلمه جانبًا .. وأمسك ورقة ، وشرع يكتب فيها بجنون :

ـ الآنسة (لينكويفست) ..

نظرت (سوزان) إلى الآنسة المذكورة .. كانت منهمكة مثله تمامًا ، لكن (سوزان) سارت إليها قدمًا ، بعد أن نظرت نظرة عتاب إلى زملائها الفتيان ، الذين وقفوا خلفها كأرانب مذعورة ..

ـ من فضلك .. نحن طلبة و ...

صاحت الآنسة (لينكويفست) فى هستيريا وهى تمسك برأسها :

ـ يا له من يوم !.. كل هذا العمل ، ثم يأتى بعض الطلبة ليزيدوا الحياة سوءًا !..

ـ نحن لا نريد سوى معرفة مكان الاستراحة ..

أشارت فى فتور إلى اتجاه ما ، ثم عادت تستكمل ما بدأته .. ، ومع الفتيان دخلت (سوزان) إلى الاستراحة ، التى تملؤها الكتب الطبية العتيقة ، والنشرات وأكواب القهوة الفارغة .. وعلى ضوء مصباح الفلورسنت الأبيض ، رأوا لوحة خشبية ، امتلأت بالأوراق والتعليمات .. ، وعلى المكتب القديم جلس د. (بيلوز)

أمامه كراسته الصفراء .. فما إن رآهم حتى نظر إلى ساعته .. لم تكن لديه تجارب فى التدريس ، لكنه عرف بالفطرة أن عليه أن يكون مسيطرًا ورهيبًا ..

نظر لهم فى فتور .. وهتف :

ـ تأخرتم ثلث ساعة كاملًا .. موعدكم كان التاسعة ..

لم ينبس أحدهم ببنت شفة ، حتى لا يكون وحده موضع اللوم ..

أمسك (بيلوز) بقطعة الطبشور ، ووقف أمام السبورة المعلقة ، وقال فى سماجة متعمدة :

ـ أهم صفات الجراح هىَ دقة المواعيد .. وعليكم أن تعوا ذلك جيدًا وإلا ـ صدقونى ـ ستكون إقامتكم هنا مثل .....

وتوقف باحثًا عن اللفظ المناسب .. كان قد رأى (سوزان) فطارت منه الكلمات .. وبعد لأى قال :

ـ مثل شتاء بارد طويل ..

أشعره جمال (سوزان) الكاسح بالهلع .. بعدم الراحة .. فلم يكن مستعدًّا لمواجهة هذا السحر ، حين أعدّ خطته ليكون حازمًا ..

استطرد (بيلوز) وهو يثبت عينيه على كل وجه :

ـ وحدة العناية المركزة ، هى أكثر مكان يمكن أن تتعلموا منه .. لكنه كذلك أخطرها .. ولن تصدروا أية

تذكرة دوائية ، دون أن أوقع أنا عليها ، أو أحد الأطباء الدائمين الذين ستعرفونهم بعد قليل ..

نظرت له (سوزان) فى تأمل ..

أدركت بذكائها أنه يتعمد الخطورة ، وأنه متصنع .. لم يكن ثمة داع لكل هذا اللوم على التأخير ، فى اليوم الأول من العمل .. وأدركت أنه شخصية ذاتية .. غير مستقرة .. لا تحب النقد .. ككل الجراحين فى الواقع ..

ـ النوبتجيات الليلية ، ستكون يومًا كل خمسة أيام ، لكل واحد منكم .. هذا ليس كثيرًا .. وإذا رغب الآخرون فى البقاء ليلًا ، فلا مانع .. ستقومون بعمل جدول فيما بينكم ، وتعطوننى نسخة منه .. يبدأ العمل فى السادسة والنصف صباحًا ، لكن أريد منكم أن تروا المرضى ، وتجمعوا المعلومات عنهم قبل البدء .. اتفقنا ؟

همس (فيرويزر) فى أذن (سوزان) :

ـ ربّاه !.. سيكون علىّ الاستيقاظ قبل ميعاد دخولى الفراش !

ـ هل ثمة أسئلة يا مستر (فيرويزر) ؟

ـ لا .. لا ..

صاح (فيرويزر) وقد أثار فزعه أن (بيلوز) يعرف اسمه ..

قال (بيلوز) بشيء من السخرية :

ـ والآن تقابلون هيئة التمريض ، التى سترحب بكم كما يجب ..

قالت (سوزان) فى ضيق :

ـ لقد شاهدنا ترحيبهم هذا الصباح .. لم نكن ننتظر أن يضربوا النفير لقدومنا ، لكننا أيضًا لم نتوقع كل هذه اللامبالاة .. .

ارتبك (بيلوز) قليلًا بتأثير جمالها .. ثم غمغم :

ـ يا د. (سوزان) .. حين يصل أطباء جدد ، أو طلبة إلى المستشفى ، فإن الممرضات يعرفن أن هؤلاء الوافدين ، هم أخطر على المرضى من أية باكتريا ، أو أى فيروس .. فلا تتوقعى أن يفرحوا بقدومكم ..

نظرت له (سوزان) وفكرت .. إنه على الأقل ـ شخص واقعى ، ولعل هذه هى ميزته الوحيدة ، بعد الانطباع السيئ الذى تركه ..

★ ★ ★

فى ذات الوقت كان د. (ديفيد كاولى) فى غرفة العمليات ، فى أسوأ حال ممكنة .. انهارت الممرضة المساعدة باكية ، وتم استبدالها .. وتحمّل طبيب التخدير

سيلًا من السباب المقذع .. أما الجراح المساعد فقد أدمى إصبعه بمبضع د. (كاولى) .. .

كان هذا الأخير من أبرع جراحى المستشفى ، وله مكتب فخم خاص به فى الطابق العاشر ، وعندما تسير الأمور على ما يرام ، يكون ألطف الخلق طرًا .. أما إذا لم تسر كما يشتهى ، غدا وحشًا كاسرًا ..

واليوم ـ فى جراحة المرارة التى يجريها ـ لم تعدّ له الممرضة المساعدة طاقم الأدوات الخاص به ، بل وضعت أدوات عامة ، من ثم أمسك (كاولى) بالصينية كلها ورماها أرضًا ..

بعد ذلك ارتجف المريض رجفة واحدة .. ولم يكد د. (كاولى) يتمكن من تمالك أعصابه ، حتى لا يقذف المبضع فى وجه طبيب التخدير ..

أما السبب الرئيسى لفقدان أعصابه ، فهو قيام (كاولى) نفسه بانتزاع الماسك الشريانى الموصل لشريان المرارة ، مما جعل الدماء تنفجر فى ثوان ، ولقد جاهد حتى تمكن من العثور على الشريان وربطه .. وحتى بعد أن فعل ذلك ، لم يكن واثقًا تمامًا ، من أنه لم يؤذ الإمداد الدموى للكبد ..

لقد كان يومًا نحسًا كله ..

وبعد الجراحة دخل استراحة الأطباء الخالية ، وهو يتمتم غضبًا ..

ذهب إلى الدولاب الخاص به ، وبعصبية ركل بابه ليفتحه ..

كانت النتيجة أن باب الدولاب الملاصق ، انفتح وسقطت منه بعض أشياء .. انحنى ليعيدها لمكانها .. وكان ما رآه كافيًا ليثير ذهوله ..

عشرات من زجاجات الأدوية (ديميـرول) .. (إينوفار) .. (كورار) ، ثم مئات من حقن (المورفين) و (البلاستر) ..

أعاد الأشياء التى سقطت إلى مكانها ، ثم أخرج مفكرة من جيبه ، دوّن عليها رقم الدولاب ٣٣٨ .. وعزم على أن يعرف صاحبه ..

برغم غضبه كان يعرف معنى ما رآه ..

يعرف خطورة ذلك على المستشفى كله ..

★ ★ ★

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ١٠,١٥ صباحًا :

لا يوجد مكان لارتداء رداء التعقيم ، سوى فى حجرة الممرضات ، لأن استراحة الأطباء تعنى الرجال فقط ..

فى حنق تتفحص د. (سوزان) أردية التعقيم بالحجرة .. كلها زرقاء اللون من النوع الخاص بالممرضات .. شعرت بالدمّ يتصاعد إلى رأسها ، وخرجت إلى استراحة الأطباء لتجد (بيلوز) واقفًا هناك .. كان يرتدى ثيابه الداخلية وجوربًا أسود اللون ، ولقد أصابه الهلع حين رآها فهرع يختفى ..

لكنها سارت فى إصرار إلى أردية التعقيم .. وانتقت سترة وسروالًا صغيرى القياس ، ثم إنها غادرت المكان بنفس العصبية ..

وفى غرفة الممرضات ، ارتدت ثياب التعقيم .. كان السروال واسعًا عليها ، فشدّت الحزام لتثبته حول خصرها الناحل ..

واستعدت لمجابهة (بيلوز) .. فقد أدركت أنه من الطراز المتحفظ ، ولسوف يكون مسليًا أن تهاجم فيه هذه النزعة ، ولعل هذا يضفى بعض حيوية على الدورة الجراحية ، التى ستمضيها فى هذا المستشفى ..



وخرجت إلى استراحة الأطباء لتجد (نايلر) واقفًا هناك .. كان يرتدى ثيابه الداخلية وجوربًا أسود اللون ..

لكم كان منظره مضحكًا ، وهو يجرى مذعورًا بثيابه الداخلية !..

وحين عادت إلى استراحة الجراحين ، وجدته ينتظرها .. وكان يبتسم !..

وفى رزانة قال :

ـ مس (هويلر) .. أعرف أن منظرى كان مضحكًا .. وعلى كل حال ، أعترف بأننى حاولت هذا الصباح إعطاءكم انطباعًا مغايرًا لحقيقتى .. أنا طبيب مقيم منذ عامين لا أكثر ، وأنت وأصدقاؤك أول طلاب أقوم بالإشراف عليهم ، ولا أبغى سوى أن أفيدكم وأستفيد منكم .. وإن لم يكن فعلى الأقل نستمتع بوقتنا ها هنا ..

ثم ابتسم من جديد ، وهزّ رأسه وانصرف من أمامها ..

وقفت مشدوهة مرتبكة ، لا تدرى ما تقول .. إن ما قاله جعلها تدرك أنها بالغت فى العدائية دونما مبرر فى الواقع .. عليها إذن أن تراجع موقفها منه ..

ولأول مرة أدركت أنه ـ حتى على مستوى الشكل ـ لم يكن سيئًا إلى هذا الحدّ ..

لحقت برفاقها ، وعلمها (نايلر) كيف تلبس الحذاء الورقى فوق حذائها ، ثم إنهم عبروا المنطقة المعقمة ، إلى غرف العمليات ..

لم تكن (سوزان) قد دخلت غرفة عمليات من قبل .. لهذا لك أن تتصور ما أحسته من رهبة وإثارة ، وهى ترمق الأطباء منحنين على أجساد المرضى ، والممرضات يدفعن الأسرة المتحركة ، التى يغفو عليها من انتهوا من جراحتهم .. وطبيب تخدير يمسك بذقن مريض ويثرثر مع الممرضة ..

وارتجفت (سوزان) ..

ـ حاولوا ألا تتكلموا بالداخل ..

قالها لهم (بيلوز) ، وقد وقفوا على باب الغرفة رقم (١٨) .. وأردف :

ـ لقد نام المريض للأسف .. كنت أرجو أن تروه قبل ذلك .. لا يهم .. قفوا جوار الحائط ، ولا تعوقوا الحركة .. الأسئلة بعد الجراحة ..

ودفع باب الحجرة ليدخلوا ..

ورأوا شخصًا ضخمًا يرتدى الرداء المعقم ، يقف جوار صور أشعة .. فرد ذراعيه بطريقة مبالغ فيها وصاح ضاحكًا :

ـ مرحبًا بروفسير (بيلوز) !.. سيرى هؤلاء الطلبة يدى أسرع جرّاح فى الشرق ، فهل أخبرتهم أن ما سيرونه هو شىء نادر ؟

أشار (بيلوز) نحو هذا العملاق وغمغم :

ـ (ستيوارت جونستون) أحد الثلاثة المقيمين الكبار .. بقى له معنا أربعة شهور فقط .. لقد وعدنى أن يلتزم حدود السلوك القويم ، فى كلامه ، لكنى لا أثق بهذا كثيرًا !..

ـ فلننته من كسوة المريض سريعًا ..

ووضعت الكسوة الخضراء على البطن ، كاشفة عن مربع صغير على الجانب الأيمن منه .. ثم تم تعقيم الجلد ..

ـ مبضع ..

واستقر المبضع فى الكف المغطى بقفاز .. وبهدوء قرب النصل من الجلد .. عيون الطلبة ترمق المشهد بفضول عات ..

نظر (جونستون) إلى طبيب التخدير ، يسأله إن كان يستطيع البدء .. فهزّ الأخير رأسه ، وفى هدوء وبشق سريع ناعم اندفع النصل فوق الأنسجة بزاوية ٤٥ درجة ، وانتثرت الدماء .. ثم انحسرت وانتهت ..

وهنا حدث شىء غريب فى ذهن (نايلز) ..

تسرب المبضع إلى خلايا عقله .. واحتشدت الدماء فيه .. ثم غاب عن الوعى ، ليصطدم رأسه بالأرض الصلبة المصنوعة من (الفينيل) ..

نظر (جونستون) إلى المشهد فى غضب .. ثم صاح :

هلا أخرجت هؤلاء الصبية من هنا يا (بيلوز) ، إلى أن يعتادوا رؤية الدماء ؟!

وانحنت الممرضة ؛ لتضع كابسولة من النوشادر تحت أنف (جورج) ، ففتح عينيه ، ولوهلة لم يدر أين هو .. ثم فهم .. واعتراه حرج شديد من هذا الضعف الذي اعتراه ..

ـ كان عليك أن تخبرني يا (بيلوز) .. فإذا كان سيكون الموقف لو سقط هذا الصبي فوق الجرح المفتوح ؟!

لم يرد (بيلوز) .. ساعد (جورج) على النهوض على قدميه ، وأشار بفتور للمجموعة كي تتبعه ، خارجين من غرفة العمليات ..

ومن وراء ظهورهم ، سمعوا (جونستون) يصرخ في مساعده :

ـ هل أنت هنا لتعاونني أم لتزيد متاعبي ؟!

★ ★ ★

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ١١,١٥ صباحًا :

كان الحرج في كبرياء (جورج نايلز) داميًا ، أكثر بكثير من النتوء الصغير الذي تكوّن في مؤخرة رأسه ..

لقد كان تأثير الحادث سلبيًا على الجميع .. (بيلوز) يسأل نفسه عما إذا كان قد تسرع بإدخال الطلبة غرفة العمليات .. (نايلز) يسأل نفسه عما إذا كان سيفقد وعيه كلما رأى جراحة .. (سوزان) هالها ذلك التبدل الدرامي ـ ١٨٠ درجة ـ في سلوك (جونستون) و (بيلوز) .. كلاهما كان مرحًا وودًا ، ثم صار فظًا بمجرد حدوث شيء تافه .. ودعم هذا فكرتها السابقة عن تقلب الجراحين وأنانيتهم ..

بثيابهم العادية جلسوا يرشفون القهوة في استراحة الجراحين .. كانت قهوة جيدة أحبت (سوزان) عبقها ، لولا دخان التبغ المنبعث من (والترز) ، الذي وقف جوار الحوض يسعل ويرمق (سوزان) .. ذكّرها منظره بأحدب (النوتردام) ولم تشعر بارتياح تجاهه ..

ثم دعاهم د. (بيلوز) ليلحقوا به إلى العناية المركزة ..

تبعه الطلبة كالدمى المتحركة متلاصقين ، كى يشعروا بالأمان والثقة .. ، إذ بمجرد أن اجتازوا الباب ، شعروا بأنهم معزولون عن العالم الخارجى ، فى عالم صامت خافت الإضاءة ..

وظهرت ممرضة شقراء ، يبدو عليها الذكاء منادية (بيلوز) :

ـ لقد أصيب (ويلسون) بضربات بطينية غير ناضجة .. وأرى أنه لابد من تعليق (ليدو كايين) ، لكن (دانييل) بالطبع لم يتخذ قرارًا بهذا الصدد ..

نظر (بيلوز) إلى رسم القلب ، وغمغم :

ـ نعم .. فعلًا يحتاج (ليدو كايين) ..

ـ أنا قلت ذلك .. سأقوم بإعطاء ٢ مجم فى الدقيقة فى ٥٠٠ سم مكعب من (الدكستروز) ..

كان المكان غريبًا بإضاءته الخافتة ، وأصواته الصناعية الميكانيكية ، وصوت نبضات جهاز تسجيل ضربات القلب ، وفحيح أجهزة التنفس الصناعى ..

كان المرضى فى فجوات متصلة بالحجرة ، على أسرّة عالية ذات حواجز جانبية ، وزجاجات العقاقير معلقة إلى جوارهم تتصل بعروقهم ..

وكان بعضهم لا يكاد يبين وراء الضمادات الملتفة حوله كالمومياء ..

والبعض كان يقظًا تعكس عيناه ذلك الخوف ، والخيط الواهن الذى يفصله عن الجنون المطبق ..

شعرت (سوزان) بأنها تتضاءل ، إذ ترمق هذه الذبذبات على شاشات (المونيتور) ، وكل هذه الأسماء على زجاجات العقاقير ، التى لا تفهم منها حرفًا ..

وزاد الأمر سوءًا ، شعورها بالفارق بين جهلها التام ، وكفاءة الممرضة الواضحة ، وتلك الطريقة التلقائية المنفتحة ، التى تحدثت بها تلك الأخيرة مع د. (بيلوز) .. الطريقة التى تخالف كل ما كانت تحسبه ، عن علاقة الطبيب بالممرضات .. ودنت من (بيلوز) إذ جلس على مكتبه ..

كان الدوسيه الذى يحمله د. (بيلوز) يحمل اسم (نانسى جرينلى) ..

وهنا دخل (دانييل كارترايت) القاعة .. كان طبيبًا ضئيل الجسد غير مهندم الثياب .. ذقنه غير حليقة وله شارب كث ورأس أميل للصلع .. وهو رجل ودود بسيط ..

ـ سيحدثنا د. (كارترايت) عن حالة (نانسى جرينلى) ..

بطريقة آلية قال (كارترايت) :

ـ هى فتاة فى الثالثة والعشرين من العمر .. تاريخها الطبى سليم تمامًا ..

دخلت المستشفى لإجراء توسيع وكحت .. إجراءات إعدادها للجراحة روتينية تمامًا .. فى أثناء الجراحة عانت من مضاعفات التخدير ، ودخلت فى غيبوبة .. حالتها مستقرة ووزنها لم يتبدل .. كذا معدل البول وضغط الدم والتحليلات الإلكتروليتية ..

همست (سوزان) ، وعلى وجهها تعبير لم يره أحد فى الضوء المعتم :

ـ ثلاثة وعشرون ؟

لقد كانت هى نفسها فى الثالثة والعشرين من العمر ..

قال (بيلوز) شارد الذهن :

ـ ثلاثة وعشرون .. أربعة وعشرون .. لا فارق ..

لكن كان هذا هامًا لـ (سوزان) وتساءلت ..

ـ أين هى ؟

ـ فى الركن هناك ..

تركزت عيناها على الجسد المسجى بلا حراك فى الفراش .. لن تستطع أن تميز سوى شعر داكن ، ووجه شاحب ، يخرج من فمه خرطوم طويل ، يتصل بآلة تصدر

فحيحًا ، وفى ذراعها الأيسر كان هناك خط أنبوب وريدى .. وثمة أنبوب بلاستيكى ، ينحدر من الفراش إلى كيس ملىء بالبول .. أنثى فى الثالثة والعشرين ـ نفس عمرها ـ راقدة بلا حراك ، ولا دليل على الحياة سوى هذا الفحيح ..

ـ منذ متى هى فى غيبوبة ؟

نظر لها (بيلوز) فى ضيق ، فقد كان منهمكًا فى شرح دور الصوديوم فى الدورة الدموية ، حين سألته هذا السؤال :

ـ منذ ثمانية أيام .. ومن فضلك ركزى على الموضوع يا (سوزان) ..

كان مهتمًا بجعلهم يفهمون حساب السوائل الداخلة والخارجة ، لكن (سوزان) كانت تتساءل :

ـ لماذا أصبحت فى غيبوبة ؟

نظر إلى القلم فى يده .. وغمغم :

ـ لا نعرف .. قضاء وقدر .. كانت بخير حال ، وتم التخدير على أكمل وجه ، لكنها لم تفق منه .. نوع ما من نقص إمداد المخ بالأكسجين .. والآن هلموا نر باقى الحالات ..

ـ وهل هو يحدث كثيرًا ؟

- آه .. تعنين الغيبوبة ؟.. نادرة جدًا .. حالة من كل مائة ألف .

ونظر لها فى حيرة .. إن العنصر الإنسانى فى حالة (نانسى) ، قد تلاشى تمامًا بالنسبة له .. كان كل ما يعنيه هو إبقاء أيونات دمها .. كما يفترض أن تكون ، وأن يحافظ على إدرار بولها .. وببساطة لم يكن راغبًا فى أن تموت (نانسى) فى أثناء عمله بالقسم ، حتى لا يوجه له د. (ستارك) اللوم ..

لم يكن قاسيًا .. لكن لم يكن لديه الوقت كى يكون حنونًا ..

- والآن نواصل كلامنا عن حساب السوائل ..

لكنها كانت مع (نانسى) .. عينيها غير المغلقتين تمامًا ، الكاشفتين عن حدقتين زرقاوين ، وشفتيها المنفرجتين قليلًا ، وعلى أسنانها بقعة بنية اللون من دم متجمد ..

أحست (سوزان) بالدوار .. وأمسكت بيدها يد (نانسى) .. كانت باردة كالثلج ، ولولا خفقات قلبها الظاهرة على الشاشة خلفها ، لحسبتها ميتة ..

سأل أحد الطلاب (بيلوز) :

- لماذا لم تجر لها عملية شق قصبة هوائية ؟

نظر له (بيلوز) هنيهة ثم قال :

- سؤال جيد جدًا يا مستر (فيرويزر) ..

واستدار نحو (كارترايت) :

- لماذا لم تفعل يا (كارترايت) ؟

بلع هذا الأخير ريقه ، وشرع يتأمل سجل المريضة الطبى ، رغم علمه أن الإجابة ليست هناك .. فقال (بيلوز) فى فتور :

- سؤال جيد جدًا .. وأنا طلبت ذلك من (كارترايت) ، لكنه لم يفعل ، ولم يستدع من يقوم له بهذا العمل .. أليس كذلك يا (كارترايت) ؟

- بلى .. هذا صحيح .. أبلغتهم فلم يحضروا ..

- وأنت لم تتابع الموضوع .. افعل ذلك حالًا .. الحق يا مستر (فرويزر) ، إن الفتاة لن تفيق من غيبوبتها ؛ لهذا نحتاج إلى شق القصبة الهوائية ، لأن الأنبوب المثبت فى حنجرتها ، سيؤدى - مع طول المدة - إلى موت أنسجة قصبتها الهوائية ..

ثم قال وقد تذكر شيئًا :

- (كارترايت) .. أريد أحد أطباء الأعصاب كى يراها . فإذا لم تبد أية استجابة ، يمكننا أخذ كليتيها ..

- كليتين ؟!

قالتها (سوزان) فى فزع ، عالمة معنى هذا بالنسبة لـ (نانسى) ..

- هى حالة ميئوس منها .. لكن كليتيها - بعد موافقة أسرتها - ستكونان ذاتى نفع لمريض آخر .. إن بعضهم يصحو من الغيبوبة ، لكن هذه ليست القاعدة .. لقد مات المخ .. ولا سبيل لعودته للحياة ، أو زرع مخ آخر ..

- ولماذا حدث هذا ؟

- لقد كانت جراحة نظيفة .. وتخديرها تم على يدى أدق طبيب تخدير عندنا .. وقد روجعت كل خطوة قام بها .. والنتيجة : لاتفسير .. ربما كان عندها حساسية معينة للمخدر المستخدم .. النتيجة هى أنها الآن نبات(*) ويجب أن نقوم لها بكل شىء .. نحفظ توازن السوائل والإلكتروليتات ، وننظم درجة حرارتها .. ونتأكد من عدم إصابتها بالتهاب رئوى ، وهى الطريقة المفضلة لدى مصابى الغيبوبة كى يغادروا عالمنا .. وأحيانا أتساءل : لماذا أكافح الالتهاب الرئوى ؟.. لماذا أطيل عذابهم ؟.. لكننا لانسأل هذه الأسئلة فى الطب .. مادام هناك التهاب رئوى ، وعندنا المضادات الحيوية ، فلا مجال للتباطؤ ..

هنا دوى صوت على جهاز الاتصال ينادى :

- د. (هويلر) .. فى ٩٣٨ من فضلك !..

(*) يستعمل لفظ (نبات) للدلالة على هذا النوع من وفاة الدماغ .

أصاب الذهول (سوزان) .. هل هذا النداء لها ؟.. ولماذا يناديها بلقب (دكتورة) ..

قال (بيلوز) فى بساطة :

- أعطيت الممرضات قائمة بأسمائكم ، لاستعمالها فى النداء ..

- سيكون غريبًا أن أتعود على لقب (دكتورة) ..

- ليس المقصود مجاملتك .. لكننا نحاول كسب ثقة المرضى .. لا ينبغى أن تخفى أنك طالبة ، لكن لا تعلنى ذلك أيضًا ، بعض المرضى لن يسمحوا لك بلمسهم لو عرفوا ذلك ، وسيصرخون شاكين من أنهم يُعاملون كفئران تجارب ..

ونظر إلى ساعته .. وأردف :

- هيا اذهبى لتلبى الطلب .. وبعدها تجدينا فى الطابق العاشر ..

مشت (سوزان) ببطء إلى المكتب الرئيسى ، وطلبت رقم ٩٣٨ ..

أخذ (بيلوز) يرمقها فى تأمل وهى تعبر الغرفة .. وأدرك - فى هلع - أن إعجابه بها يتزايد أكثر .. وأكثر ..

* * *

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ١١,٤٠ صباحًا :

يا له من شعور عجيب !..

النداء تسمعه (سوزان) وهى ترتدى المعطف الأبيض ، فكأنه عالم غير واقعى ، تمثل فيه دور طبيبة .. كل شىء كان دراميًا مبهرًا ..

قالت لها الممرضة فى الهاتف :

ـ نحتاج إلى تركيب خط وريدى لمريض ، على وجه السرعة ، وقبل أن يباشر طبيب التخدير عمله ..

ثنت (سوزان) السلك بين أصابعها ..

ـ متى تريدون ذلك ؟..

ـ الآن !

خرجت (سوزان) من العناية المركزة ، والقلق ينتابها ، لما هى مقدمة عليه .. فهى لم تعط حقنًا وريدية قبل اليوم .. كانت تعرف نظريًا ما ينبغى عمله .. فقط تضرب الإبرة فى الجلد ، وتخترق الوريد دون أن تثقبه .. الصعوبة هنا ، هى أن يكون العرق رفيعًا كخيط المكرونة (الإسباجتى) وتجويفه أدق من ذلك .. ، برغم أنه عمل هين ، إلا أنها أدركت أنه تحد عسير لها .. ولسوف يظهر بوضوح أنها

جديدة على اللعبة ، ولربما ثار المريض وطلب طبيبًا حقيقيًا .. كما أنها لا تقبل أى تهكم من أولئك الممرضات ..

وصلت أخيرًا إلى الطابق الخامس ، فناولتها ممرضة تضع على قبعتها شريطًا برتقاليًا ، صينية عليها زجاجة سائل وريدى .. وقالت :

ـ الاسم (بيرمان) .. إنه فى (٥٠٣) ..

اتجهت (سوزان) إلى الغرفة ، حاملة الصينية ، عليها عبوات من الكحول ورباط مطاطى وبعض الإبر (كانيولا) ..

ترددت أمام الباب ، هل تقرعه أم تدخل مباشرة .. ثم إنها قرعت الباب ، فدعاها من بالداخل كى تدلف .. كانت تتمنى أن ترى عجوزًا منهكًا ، أو مريضًا متهالكًا ، لا يلاحظ ما يحدث له ، لكنه ـ للأسف ـ كان شابًا فى صحة ممتازة .. وجهه رقيق يشف عن ذكاء ، ولونه برونزى ومظهره رياضى ..

ـ لا تخجلى .. ادخلى على الفور ..

ثم نظر إلى الصينية التى تحملها .. وتساءل فى قلق :

ـ لا .. ليس حقنة أخرى !

قالت (سوزان) متظاهرة بالبرود :

ـ أخشى أنها كذلك ..

ثم علقت زجاجة (الدكستروز) على الحامل ، وأوصلت بها جهاز المحلول ، لتخرج بعض قطرات السائل ، قبل أن تثبت الإبرة على طرفه ، ثم رفعت عينها نحو (بيرمان) ، لتجده يرمقها فى اهتمام .. وبشك سألها :

- هل أنت طبيبة ؟

نظرت له وصمتت .. هى لم تكن طبيبة .. هذا واضح ، ولن تستطيع أن تزعم العكس ، حتى لو أرادت ..

قالت له بوضوح :

- كلا .. أنا طالبة طب ..

فرك يديه فى عصبية وغمغم :

- كل ما هنالك ، هو أنك لا تبدين لى كطبيبة ..

لم تدر أهى مجاملة أم انتقاد .. واصلت عملها ، فوضعت سوار الضغط حول معصمه وشدته حتى تنفر العروق ، ثم إنها أخرجت قطعة قطن مبللة بالكحول ..

قال (بيرمان) فى عصبية :

- يجب أن أعترف لك بأنى أمقت الحقن ..

كيف لو عرف أنها المرة الأولى لها ؟!..

غرست الإبرة فى يده ، لكن جلده قاوم الوخزة ..

سمعته يتأوه .. فقالت :

- مستر (بيرمان) .. أتوقع منك تعاونا أكثر ..

قال (بيرمان) فى حنق :

- تعاونا ؟.. أنا مستسلم كخروف الأضحية !

شدت (سوزان) الجلد واخترقته بالإبرة .. وشعرت بها تخترق الوريد وإذا بالدم يملأ الخرطوم البلاستيكى .. ففتحت صمام المحلول ..

وتنفس كلاهما الصعداء ..

وأحست (سوزان) وكأنها أنهت جراحة مخ بارعة ..

وبهدوء ثبتت الإبرة على ذراعه بالشريط اللاصق ..

قال (بيرمان) ، وقد بدا أنه بحاجة إلى أى حديث يسرى عنه :

- أنا مهندس معمارى ، خريج (كامبردج) .. أنا لا أخشى الجراحة ، لكنى أخشى الانتظار المؤلم .. الكل هنا يتصرف بأسلوب علمى جاف .. فلماذا اخترتِ هذه المهنة الجافة ، برغم أنوثتك الوافرة ؟

لم يكن ثمة داع للنقاش حول المعنى الصحيح للأنوثة ، فليس الوقت ملائمًا لهذا قبل الجراحة .. ولهذا قالت :

- الطب يعطينى الأمان الاجتماعى الذى أحتاج إليه ..

ثم أردفت بلهجة ذات معنى :

- لكنه فى الواقع يشعرنى بأننى معزولة عن المجتمع ..

أشار (بيرمان) إلى ركبته اليمنى .. وقال :

- يسعدنى أن أعرف عنك أكثر ، بعد أن تنتهى مشكلة



— مستر (بيرمان) .أتوقع منك تعاونًا أكثر .. قال (بيرمان) فى حنق:

— تعاونًا ؟.. أنا مستسلم كخروف الأضحية !..

ركبتى هذه .. لقد أصيبت منذ سنوات فى أثناء لعبى كرة القدم .. وغدت نقطة ضعفى من حينها ..

وهنا دق الباب .. ودخلت الممرضة ، فهتف (بيرمان) فى ذعر :

ـ يا إلهى !.. لا أريد حقنًا أخرى !

بجفاء قالت الممرضة :

ـ هيا .. لا بد من أدوية ما قبل الجراحة .. نم على جانبك ..

طاوعها (بيرمان) فى شىء من الحياء لوجود (سوزان) ، فقامت الممرضة بحقنه فى إليته اليسرى بسرعة وكفاءة ، ثم انصرفت كالبرق ..

قالت (سوزان) وهى تتبعها خارجة من الغرفة :

ـ سأتركك الآن .. وسأمر عليك قبل أن تغادر المستشفى ..

ـ وهنا دخل ممرض يدفع سريرًا متحركًا ، ليأخذ (بيرمان) إلى حجرة العمليات رقم (٨) ..

نظرت له (سوزان) باسمة ، وتمنت له حسن الحظ فبادلها التحية ..

ولم تنكر (سوزان) أنه إنسان جذاب ، وله سحر دافئ لا بأس به ..

إن مهنة الطب ستكون صعبة من كافة الوجوه ..

هكذا قالت لنفسها .. ولم تكن مخطئة ..

★ ★ ★

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ١٢،١٥ :

إنها الآن جائعة !.. قطعتا (التوست) اللتان تناولتهما فى الصباح ، لاتعتبران وجبة ..

الفوضى تسود الطابق الخامس ، فى وقت توزيع وجبات المرضى ..

الممرضة ذات الشريط البرتقالى ، تبتسم لـ (سوزان) ابتسامة خاطفة ، وتشكرها على تركيب الخط الوريدى ، فتشعر (سوزان) بالرضا والفخر ..

قررت النزول على السلم العتيق المتهالك ، إلى العناية المركزة ، بدلًا من استعمال المصعد المزدحم .. وعند الطابق الثانى ، رأت اللافتة المكتوب عليها بوضوح «قسم العمليات ـ ممنوع الدخول» ..

لم يكن ثمة داعٍ للافتة ، فإن الباب كان مغلقًا من الداخل ، ولا يمكن فتحه من ناحيتها .. لهذا نزلت السلم إلى الطابق السفلى ، ثم استقلت المصعد إلى الطابق الثانى ، عند مدخل العناية المركزة ..

فى تثاقل دفعت الباب ، لتدخل ذلك العالم الثقيل ، بإضاءته الخافتة الكابية ، وأصوات الهسيس من آلات

التنفس .. كانت (نانسى) هناك .. فتاة تملك أحلامًا وأصحابًا .. وقد ولّى كل هذا إلى الأبد ، بسبب عدم انتظام فى الدورة الشهرية ..

غادرت المكان الخانق ، لتركب المصعد إلى الطابق العاشر ، حيث أخبرها (بيلوز) أن زملاءها سيكونون ..

هذا الطابق يختلف .. فأرضيته مكسوة بالسجاد ، وحوائطه تلمع بدهان جديد مصقول ، عليها صور لكبار الأطباء ..

وفى نهاية الممر ، رأت مكتب د. (ستارك) رئيس قسم الجراحة .. وإلى جواره باب مفتوح ، يكشف عن قاعة مظلمة ، وعلى الباب لافتة تقول «قاعة الاجتماعات» ..

دلفت إلى القاعة المظلمة ، وانتظرت حتى اعتادت عيناها الظلام ..

الضوء الوحيد كان ينبعث من شاشة عرض ، جوارها يقف رجل يمسك بمؤشر ، ويشرح للحاضرين شيئًا ما ..

أدركت أن الصورة المعروضة ، هى قطاع ميكروسكوبى من رئة ..

فى الضوء الخافت تبينت رءوس زملائها ، الجالسين إلى جوار (بيلوز) ، رأت أنهم تركوا لها مقعدًا شاغرًا ، فذهبت لتتبوأه ..

وسمعت (بيلوز) يميل عليها هامسًا :

- كل هذا الوقت لتركيب محلول ؟.. كأنك كنت تجرين جراحة مخ وأعصاب ..

قالت فى جدية :

- لقد كنت أكشف على (روبرت ردفورد) نفسه(*) ..

هز (بيلوز) رأسه وضحك :

- غير معقول .. إنك ...

وهنا توقف .. وقد أدرك أن المحاضر كان يوجه له سؤالا ، كل ما سمعه منه هو ، والآن يحدثنا د. (بيلوز) عن هذه النقطة ! ، .. أية نقطة ؟..

لهذا هتف فى توتر :

- معذرة د. (ستارك) .. لكنى لم أسمع السؤال ..

- أقول : هل ظهرت عليها أعراض التهاب رئوى ؟

وعلى الشاشة كانت صورة أشعة كبيرة لرئتين .. انحنى أحد الأطباء خلف (بيلوز) ليهمس فى أذنه :

- يتكلم عن (نانسى) أيها الأحمق !

التقط (بيلوز) الخيط ، فوقف ليقول :

(*) ممثل أمريكى وسيم اشتهر بتمثيل (كل رجال الرئيس) و (الحصان الكهربائى) و (حافية على السطح) .. و (سوزان) تعنى هنا طبعًا أن (بيرمان) كان شديد الوسامة ..

- كانت حرارتها مرتفعة يا سيدى ، لكن لا توجد أعراض صدرية ، وصورة الأشعة عادية .. كان البول يحوى بعض الباكتريا ، لهذا نعتقد أن التهاب المثانة هو سبب ارتفاع حرارتها ..

قال د. (ستارك) ووجهه ما زال فى الظلام :

- هل ستستعمل هذا الضمير إذن ؟

- أى ضمير يا سيدى ؟

- ألا تعرف الضمائر يا (بيلوز) ؟

ارتفعت ضحكات متناثرة فى القاعة .. فقال (بيلوز) بارتباك :

- أعرفها يا سيدى ..

- هذا أفضل .. لقد سئمت سماع كل طبيب يستعمل ضمائر (نحن) و (نا) .. إلخ عندما يتكلم .. أنا أسألك عن (رأيك) أنت ، وليس (رأيكم) .. إنه قرار فرد .. ورأى فرد .. وأريد ممن يكون جراحًا فى قسمى ، أن يجرؤ على قول (أنا) ..

وهنا قطع كلامه وميض أحمر متقطع على الحائط الجانبى ، وظهرت عبارة على شاشة جانبية تقول :

، سكتة قلبية بوحدة العناية المركزة ، ..

أطلق (بيلوز) سبّة ووثب من مكانه مدمدمًا :

- أوف !.. يا للحظ السيئ ! ..

ثم اندفع كالرصاصة من القاعة وخلفه (كارترايت) ..

ترددت (سوزان) ورفاقها لحظة .. ثم تدافعوا لاحقين بـ (بيلوز) ..

أما د. (ستارك) فواصل محاضرته كأن شيئًا لم يحدث ..

* * *

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ١٢,١٦ بعدالظهر :

لم يكن (بيرمان) يفقه شيئًا عن الطب ..

بل هو لم يحاول معرفة شيء عن مرضه وعلاجه ، كان يخاف المرض ويربط بينه وبين الطب فى سلة واحدة ، فلا يفهم أنهما نقيضان .. وكانت أمعاؤه تتقلص ، كلما تخيل أن نصل المبضع سيمزق جسده ..

يذكر جيدًا لحظة أن دخل المستشفى ، ليقول لموظفة الاستقبال :

- اسمى (شون بيرمان) ..

كان وجهها مغطى بالمساحيق أكثر من اللازم ، ولاحظ طلاء أظفارها الأسود الغريب ، وهى تقلب صفحات الملف . وتساءل فى سره ، كيف لم يلمها أحد على هذا الطلاء الغريب .. وسمعها تقول :

- لا يوجد لك ملف هنا .. انتظر حتى أفرغ من هؤلاء المرضى ..

وبرغم أنه تعطل ساعة كاملة ، وساعة مثلها فى قسم الأشعة ، فإنه لم يسخط .. بل أحس برضا ؛ لأن هذه المشاكل الصغيرة ، تصرف تفكيره عن الجراحة التى هو مقبل عليها ..

وفى غرفته جلس ينتظر ، كالمحكوم عليه بالإعدام .. وكانت زيارة (سوزان) العابرة له ، كنجم فى سماء ملبدة بالغيوم .. أعطته الأمل فى الحياة ، وأدرك أنه لن يموت .. مستحيل أن يموت وهو شاب وبكامل عافيته ..

وساعدت الحقنة التى أعطته إياها الممرضة ، على أن ينفصل عن كل شىء حوله ، وأن يشعر بروح المرح .. ولم يعد الزمن ذا أهمية بالنسبة له ..

وفى غرفة العمليات ، وقفت الممرضة (بينى أوريللى) ترتب الأدوات الجراحية ، على حامل (مايو) ، أما الممرضة (مارى أبروزى) ، فقد أعدت الرباط الخاص بقياس ضغط الدم ..

وكان د. (جودمان) طبيب التخدير ، يخرج فقاقيع الهواء من جهاز المحاليل ، وكان يشعر بالرضا ؛ لأن المريض شاب قوى ، والجراح د. (سباليك) من أمهر جراحى العظام بالمستشفى ، وبالتالى سينتهى كل هذا قبيل الواحدة ظهرًا ..

ـ نسيت يا (مارى) إحضار أنبوب القصبة الهوائية .. هلا ذهبت وأحضرت قياس (٨) ؟

ـ حالًا ..

وقام بتوصيل الأنابيب ، إلى أنابيب (أكسيد النتروز) و (الأكسجين) المركزية فى الحائط ..

إن (نيرمان) هو الحالة الرابعة والأخيرة لهذا اليوم ، لقد كانت هناك حالة صعبة نوعًا من الحالات الثلاث التى قام (جودمان) بتخديرها اليوم .. امرأة تزن ٢٦٧ رطلًا ، وتعانى من حصوات مرارية ، وكان (جودمان) يخشى ، أن تمتص دهونها ، كميات كبرى من عقار التخدير ، مما يؤدى إلى صعوبة إيقاظها لكن هذا لم يحدث ..

الحالة الرابعة ـ حالة (بيرمان) ـ هى حالة تمزق فى الغضروف الهلالى بالركبة .. ياله من ملل !.. لم يكن شىء قادرًا على كسر الروتين بالنسبة لـ (جودمان) سوى أن يغير أساليب التخدير ، ليجبر نفسه على التفكير .. وعلى ابتكار أساليب تقلل جرعات المخدر ..

كان المريض قد وصل ، ونقلوه على المنضدة .. فشدّ (بيرمان) الملاءة عليه ، ونام على جنبه كأنما فى داره .. ، أعادوه إلى ظهره ، ورفعت (مارى) قدمه لتعلقها فى حامل معدنى ، وشرع (تيدكولبرت) الطبيب المساعد ، يعقّم الركبة بمحلول مطهر ..

الضغط ٧٥/١١٠ .. النبض ٧٢ ومنتظم ..

ـ الآن يا مستر (بيرمان) ، أرجو أن تسترخى تمامًا ..

ضحكت (مارى) من الدعابة .. وهتفت :
ـ لو استرخى أكثر ، سيغوص فى المنضدة !
قام د. (جودمان) بإعطاء المريض (دروبريدول) و (فنتانيل) ، ثم وجد أن المريض قد نام تمامًا ، فلا داعى إذن لإعطائه (البنتوثال) ..
وضع القناع الأسود على وجهه ليمده بـ (أكسيد النتروز) .. ثم حقنه بالـ (تيوبو كورارين) ـ وهو العقار الذى يعود فضل استعماله ، إلى شعوب (الأمازون) ـ ثم بدأ يملأ رئتيه بالهواء من الكيس ..
كل شىء على ما يرام ..
وبحركات مسرحية أنيقة ، فتح د. (سباليك) الركبة .. وبالجفت انتزع غضروفًا ممزقًا ، معلنًا أنه هو سبب مشكلة المريض ، لكن الممرضتين لم تكونا واثقتين تمامًا ، مما إذا كان هذا القطع مرضيًا أم أحدثه الجراح الآن ..
وانتزع د. (سباليك) قفازيه ، وقال لمساعده أن يغلق الجرح ، مستخدمًا أمعاء القط والحرير .. ثم غادر الغرفة ..
تساءل د. (جودمان) :
ـ كم ستستغرق من وقت ؟
ـ ربع إلى ثلث ساعة ..

وهنا ارتفع ضغط الدم قليلًا ، مما دعا (جودمان) إلى زيادة جرعة عقار (اينوفار) وريديًا ، وفيما بعد اعترف أن ذلك ربما كان خطأ من جانبه ، لربما كان استعمال (الفنتانيل) أكثر صوابًا ..
لكن ضغط الدم استقر .. فعاد الجراح يعمل .. وعادت (مارى) إلى ركن الغرفة ، تمسك بمذياع صغير ، تنبعث منه موسيقا (الروك) ، وتلوك لبانة ..
وفجأة ظهر على الشاشة انقباض بطينى غير ناضج .. ثم توقف القلب هنيهة .. توتر (جودمان) ، وزاد من تدفق الأكسجين ؛ ليغسل (أكسيد النتروز) من دم المريض .. (كولبرت) يطلب المزيد من الغرز للخياطة ..
دقتان أخريان غير طبيعيتين .. وهذه المرة قلل د. (جودمان) سريان الأكسجين ، عله هو سبب حساسية عضلة القلب ، ولقد أقرّ فيما بعد أن هذا قد يكون خطأ آخر ..
وفجأة ازداد عدد الضربات الغريبة ، وكاد (جودمان) يصاب بسكتة قلبية هو قبل المريض .. ثمة شىء خطأ .. ضغط الدم ينخفض إلى ٨٠/٥٥ دونما سبب ..
أصاب الهلع (جودمان) فى مقتل ، وعجز تمامًا عن فهم ما يحدث .. الصورة على الشاشة تحولت إلى نوع من الشخبطة ، التى لا تفسير لها سوى خطورة الموقف ..

- ماذا يحدث عندك بحق السماء ؟

قالها د. (كولبرت) وهو يرفع رأسه ..

لم يجب (جودمان) .. بهستيريا صرخ فى الممرضة :

- ليدوكايين !!

حاول انتزاع غطاء المحقن بيده المرتجفة ، دون جدوى .. فسبّ وقذف المحقن فى الأرض ، ثم عرّى محقنًا آخر ، وحاول أن يملأه بـ (الليدوكايين) ، لكن يديه ارتجفتا ، فلم يستطع أن يسحب العقار فى المحقن .. بل إنه جرح إصبعه بالإبرة ..

- أسرع ..!.. إن قلب هذا الرجل سيتوقف !

أخيرًا ، وبعد لأى ، استطاع (جودمان) أن يملأ المحقن بالـ (ليدوكايين) وجاهد - وهو يرتجف - كى يحقنها فى الحافظة المطاطية لجهاز المحلول ، وفجأة .. عاد القلب يخفق بسرعته العادية المنتظمة ..

قاس ضغط الدم ، وهو لا يصدق عينيه .. فوجده قد صار ١٠٠/٦٠ ، كما عاد النبض ٧٢ فى الدقيقة ..

العرق يتساقط من جبينه على سجل التخدير ..

سأله د. (كولبرت) :

- ماذا حدث ؟

- لا أدرى .. انتبه سريعًا ، لأننى أريد إيقاظ هذا الرجل ..

انتهى الجراح من الغرز ، وبدأ فى التجبيس على حين حاول (جودمان) أن يدفع بالهواء إلى رئتى (بيرمان) كى يتنفس تلقائيًا ..

لكن سُدى .. لم تكن هناك أية محاولة تنفس ..

تساءل (جودمان) فى قلق ، عما عساه تكون انعكاسات الحدقة .. ففتح الجفن وجذبه لأعلى ..

وهنا لاحظ شيئًا مروعًا ..

إن (الفنتانيل) - شأنه شأن عقاقير التخدير كلها - يعمل على تضييق إنسان العين ، لكن إنسان عين (بيرمان) كان متسعًا للغاية ..

أمسك (جودمان) البطارية وركز الشعاع على الحدقة ، فلم تحدث أية استجابة .. الحدقة متسعة ثابتة ..

عندئذ لم يقل (جودمان) شيئًا ..

رفع عينيه إلى أعلى ، والعرق يغمر جبينه .. وهمس :

- يا إلهى الرحيم !..

....

* * *

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ١٢,٣٤ بعد الظهر :

هرولت (سوزان) ورفاقها إلى المصعد ، فى حماس مبالغ فيه ، مارين بين المرضى الجالسين .. كان الطلبة يهرولون ، ممسكين أقلامهم وسماعاتهم وبطارياتهم ، كما لو كانوا هم من سينقذون الحالة ، وبدا على المرضى الرضا لهذا المشهد ، الموحى بالاستعداد التام لإنقاذ المرضى ..

كان المصعد بطيئًا .. وقد أخذ (بيلوز) يضغط الزرّ مرارًا ، كأن هذا سيعجل في قدومه .. ثم إنه صاح فى نفاد صبر :

- سنستعمل السلم ..

واندفعوا يهبطون السلم الحلزونى الطويل بلا نهاية ..

همس (فيرويزر) فى أذن (سوزان) وهو يلهث :

- لماذا الجرى ؟

- نجرى لأن (بيلوز) فى المقدمة .. أريد أن أرى ما سيحدث ، لكنى لا أريد بحال أن أكون أول الواصلين هناك !

وشرعوا يجرون خلف (بيلوز) إلى غرفة العناية المركزة ..

هذه المرة كانت الغرفة مضاءة تمامًا بضوء باهر .. وفى الركن كانت الممرضات الثلاث المعينات فى الغرفة ، يقمن بعمل تدليك صدر لـ (نانسى جرينلى) .. وعلى الشاشة رأوا جميعًا شخبطة مروعة ..

قالت الممرضة الأولى :

- كانت فى حالة ذبذبة بطينية منذ أربع دقائق ..

دار (بيلوز) حول الفراش .. ثم كوّم قبضته وهوى بها على صدر المريضة ، فارتجفت (سوزان) من الصوت .. لكن شيئًا لم يحدث ..

وقال (بيلوز) للممرضة :

- اشحنى (نازع التذبذب) .. أسرعى ..

ثم نظر إلى الممرضة الأخرى آمرًا :

- أمبول بيكربونات .. وأعدى سرنجة بها ١٠ سم من تركيز ١ : ١٠,٠٠٠ (إبينفرين) ..

فقامت ممرضة بحقن البيكربونات ، وأعدت الأخرى (الإبينفرين) .. فتناول منها المحقن ، ودار حول المريضة .. ثم غرز الإبرة فى قفصها الصدرى ، وسحب المكبس ليتأكد من أنه بالقلب .. ثم حقن ..

ارتجفت (سوزان) شاعرة أن هذه الإبرة تخترق قلبها هى ..



دار (بيلوز) حول الفراش .. ثم كوّم قبضته وهوى بها على صدر المريضة ..

همس (بيلوز) وهو يواصل تدليك القلب :

ـ سيقتلنا (ستارك) لو ماتت ..

نظرت له (سوزان) فى حيرة .. لا أحد يعتبر (نانسى) إنسانًا .. بل هى لعبة معقدة يلعبونها ، وكل أهمية حياتها هى ما ستؤثر به ـ سلبًا أو إيجابًا ـ على مستقبلهم المهنى .. فلتمت (نانسى) ، ولكن دون أخطاء يمكن أن يُلاموا عليها ..

إنها ـ (سوزان) ـ تمقت المستشفى .. تمقتها إلى أقصى حدّ ..

وضع (بيلوز) الأقطاب الكهربية لـ (نازع التذبذب) فوق صدر (نانسى) العارى ، ثم صاح الصيحة المعتادة :

ـ إخـلاء !

فتراجع الجميع للخلف .. ومرت الشحنة الكهربية عبر صدر (نانسى) ، فانتفض جسدها ، وتقلصت ذراعاها .. وعادت ضربات القلب العادية إلى الشاشة .. فتنفسوا الصعداء ..

وهنا عاد الاضطراب من جديد إلى القلب ..

قالت الممرضة وهى ترمق الشاشة :

ـ عضلة قلبها متوترة .. لا بد أن هناك خطأ ما ..

- لو عرفتِ ما هو ، دعينا نعلم .. إلىّ بخمسين سنتيمترًا من (الليدوكايين) ..

وفى الواحدة والربع ، كانت (نانسى) قد تلقت إحدى وعشرين صدمة كهربية ، ومئات من محاولات التدليك ، كلها ذات أثر وقتى ..

وهنا اتصل المعمل ليبلغهم بتركيز (بوتاسيوم) الدم ، الذى طلبه (بيلوز) ..

كان مستواه ٢,٨ مللى عيارى لكل لتر .. وهو مستوى منخفض ..

- ياللهول !.. كيف انخفض إلى هذا الحد ؟

وأمر الممرضة أن تعطى (نانسى) بعض (البوتاسيوم) .. ثم واصل الصدمات الكهربية والتدليك ..

بدأ الوضع يتحسن نوعًا مع (البوتاسيوم) .. وهنا سمعت (سوزان) من يناديها ، لأنهم بحاجة إلى عينة من الدم الشريانى من مريض ما ..

ولم تكن تعرف كيف تقوم بذلك ، لهذا تطوّع (بيلوز) بأن يصحبها ليعلمها .. خاصة وأن الدماء عادت تجرى فى عروقه ، بعد انتظام ضربات قلب (نانسى) ..

لقد انتهت المحنة .. مؤقتًا ..

* * *

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ١,٣٥ بعد الظهر :

إن وخز الشريان يشبه وخز الوريد .. فقط عليك أن تعزلى الشريان بالإصبع الوسطى والسبابة كذا .. فما أن تشعرى بالنبض حتى تغرسى الإبرة .. ودعى ضغط الدم يملأ الحقنة بدلًا من جذب المكبس .. إن هذا يوفر عليك إدخال فقاقيع الهواء ..

قال (بيلوز) هذا ، وهو يسير مع (سوزان) إلى غرفة الطوارئ ، التى بدت لها شبيهة بالعناية المركزة ، إلا أن إضاءتها أفضل .. وكان النشاط يسود المكان وسط حركة الأطباء والممرضات ..

- سأفعل أنا العملية هذه المرة .. وتتولينها أنت المرة القادمة ..

كان هناك فراش يحيط به عدد من الأشخاص ، وثمة طبيبان فى رداء التعقيم .. وطبيب زنجى طويل مهيب ، يقف على اليمين ، ويقوم بضبط جهاز التنفس .. كان الجو مكهربًا بشكل غير عادى ..

الطبيب ضئيل الحجم يرتجف كالورقة ، أما الآخر فكان يصرّ على أسنانه فى غيظ .. الأول هو (جودمان) طبيب

التخدير .. الثانى هو (سباليك) صاحب حادث الدولاب المكسور ، الذى حكيناه منذ قليل ..

كان د. (سباليك) يصرخ محنقًا :

- لا بد من تبرير لكل هذا !

ثم نزع القناع المدلى على صدره ، ورماه أرضًا .. واندفع من الغرفة فاصطدم بـ (بيلوز) حتى كاد يسقط الصينية من يده .. لكنه لم يعتذر ، وواصل خروجه الغاضب من الغرفة ..

تأملت (سوزان) الطبيب الزنجى فخم المظهر .. وتأملت البطاقة المثبتة على صدر معطفه الأبيض : د. (روبرت هاريس) ..

كان طويلًا ، يعكس وجهه خليطًا فريدًا من التهذيب والثقافة والعنف المتحضر .. والتقت عيناهما لحظة ، ثم عاد يواصل عمله فى ضبط جهاز التنفس ..

ودون أن ينظر لـ (جودمان) ، سأله بلهجة (أكسفوردية) راقية جدًا :

- ماذا استعملت فى التخدير يا (جودمان) ؟

ردّ هذا بصوت متحشرج :

- (إينوفار) يا سيدى ..

اختلست (سوزان) نظرة إلى المريض الراقد .. إلى معصمه الذى كان (بيلوز) يعده لأخذ العينة .. ثم ....

عادت بعينيها إلى وجهه .. لقد عرفت من يكون .. إنه (بيرمان) !.. لقد تحول وجهه البرونزى الوسيم - الذى رأته منذ ساعة ونصف لا أكثر - إلى شىء رمادى .. ومن جانب فمه ، خرج أنبوب القصبة الهوائية ، وثمة دماء متجمدة على شفته السفلى .. وعيناه كانتا مغلقتين تمامًا ..

تساءلت (سوزان) بصوت مبحوح :

- هل هو ..... على ما يرام ؟

اندهش (بيلوز) من اهتمامها ، وتوقف عن العمل ناظرًا لها .. على حين قال د. (هاريس) بلهجته المثقفة :

- هو على أفضل ما يكون .. لكنه لا يصحو !.. هذا هو كل شىء ..

هتف (بيلوز) وقد أدرك أن كارثة جديدة قادمة له :

- ماذا ؟.. حالة غيبوبة أخرى ؟

تساءلت (سوزان) ، وعيناها تدوران حول الوجوه :

- مثل المريضة فى العناية المركزة ؟.. مثل (نانسى) ؟

قال د. (هاريس) :

- أرجو ألا يكون كذلك .. لكن كل شىء يشير لهذا ..

ثم إنه نظر إلى (جودمان) ، وتأمل سجل التأخير :

- لماذا زدت جرعة (الإينوفار) فى نهاية الجراحة يا (جودمان) ؟
- كان تخديره قد تلاشى نوعًا ..
- لكن لماذا (إينوفار) ؟.. ألم يكن الـ (فنتانيل) أوفق ؟
تساءلت (سوزان) مقاطعة :
- ألا يمكن عمل شىء ما ؟
تذكرت وجه (بيرمان) الوسيم الضاحك ، وهو يتحدث إليها قبل الجراحة .. حيويته .. وتذكرت (نانسى) ..
- « لقد تم عمل اللازم » - قال (هاريس) بحزم - « سننتظر أن تعود الوظائف المخية لعملها ، وإن كان من الواضح أن المخ قد مات .. وهى دلالة سيئة حتمًا » ..
شعرت بالغثيان .. شعرت بالدوار .. بالعجز ..
صاحت وقد فقدت كل تحكم لها فى أعصابها :
- هذا كثير جدًا .. رجل فى صحة جيدة يشكو شكوى تافهة ، ثم ينتهى هكذا ؟.. شابان فى أقل من أسبوعين ؟.. لماذا لا يقوم رئيس قسم التخدير ، بإغلاق هذا القسم المشبوه ؟.. حتمًا هناك خطأ ما ..
بدأت عينا (هاريس) تضيقان وهى تتكلم .. بينما فغر (بيلوز) فاه .. وفى برود قال (هاريس) :
- أنا رئيس قسم التخدير يا آنسة .. وأنت من تكونين ؟

قبل أن ترد هى ، سارع (بيلوز) بالرد :
- (سوزان هويلر) يا سيدى .. طالبة بالصف الثالث ، وتتلقى تدريبًا فى قسم الجراحة ، و .... أردنا فقط أخذ عينة دم ثم نرحل فورًا ..
قال (هويلر) فى لهجة مفعمة بالكبرياء :
- مس (هويلر) .. إن أسلوبك العاطفى الملىء بالانفعال ، لا مكان له هنا ، ولا يخدم أى غرض بناء .. لقد تم التخدير بعناية باستثناء بعض نقاط مشكوك فيها ، ويمكن تداركها ، لكن أن نهاجم التخدير ككل ، ونحرم المرضى من هذا الفن السامى ، لهو أسوأ بكثير من قبول مخاطرة بسيطة محسوبة ..
- إن حالتين فى ثمانية أيام ليستا مجرد مخاطرة بسيطة ..
حاول (بيلوز) أن يخرسها دون جدوى .. على حين قال (هاريس) :
- إن هذا الجدل يتخذ شكل تحقيق ، لا أجد من واجبى أن أرد عليه ..
واستدار لينصرف ، فأسرعت جارية وراءه صائحة :
- لا بد من أن يقوم شخص ما بتوجيه الأسئلة ..
استدار (هاريس) ببطء شديد ، فأغلق (بيلوز) عينيه ، كأنما يتوقع صفعة على وجهه .. وقال (هاريس) :
- لن يكون هذا الشخص طالب طب على كل حال ..

ثم واصل طريقه إلى باب الخروج .. ودفعه بشدة وخرج ..
وضع (بيلوز) يده على جبهته ، وقد جفّ الدم من عروقه .. ماذا تحاولين عمله أيتها الحمقاء ؟.. تنتحرين ؟.. تتحدثين بهذا الأسلوب مع رئيس قسم التخدير الشهير بجبروته ؟
ثم إنه غرز المحقن فى شريان (بيرمان) وهتف :
- يجب أن أبلغ (ستارك) بما حدث ، قبل أن يعرفه من مصدر آخر ..
يا إلهى !.. أنت لا تعرفين شيئًا عن سياسة المستشفى ..
راقبت (سوزان) المحقن وهو يمتلئ بالدماء الحمراء .. وهتفت :
- كان هذا هو المريض ، الذى ذهبت لأحقنه وريديًا منذ ساعة ونصف .. كان إنسانًا لطيفًا فى غاية الحيوية .. بل إنه راق لى .. إن هذا لا يصدّق أبدًا .. ساعة ونصف !
- لا أريد أن أسمع أكثر ..
ثم ناولها المحقن ، وأمرها أن تضعه وسط الثلج .. وضغط بقوة على موضع خروج الإبرة .. واستطرد :
- أنت لا تعرفين كم من متاعب يستطيع (هاريس) أن يسببها لى ..
- يجب أن تعترف أن هذا المعدّل مرتفع لحالات موت الدماغ ..

- هذا المستشفى يشهد مئات الجراحات يا (سوزان) .. ست حالات لا تشكل كمًا كبيرًا ، بل يمكن قبولها كمضاعفات لعملية التخدير ..
- أنت قلت لنا صباح اليوم ، إن حالة (نانسى) تحدث مرة كل مائة ألف حالة .. والآن تحاول القول إن ست حالات من خمس وعشرين ألف حالة ، هى نسبة مقبولة .. هل تقبل أنت أن تجرى جراحة تافهة ، فى مستشفى تحدث فيه هذه النسبة ؟
- أنتِ تضيعين وقتك .. لقد قام د. (بيلنج) بدراسة كل صغيرة وكبيرة ، فى حادث (نانسى) ، وصدقينى إنه دقيق وخارق الذكاء .. وقد قال إنه لا يوجد تفسير ..
- شكرًا على تشجيعك ، لكنى سأقوم بدراسة هذه الحالات .. ولسوف أبدأ من العناية المركزة ..
- حسن .. لكن ليكن مفهومًا لكِ ، أننى لن أتدخل فى الموضوع ، مع وجود (هاريس) .. أنتِ حرة تمامًا ..
- للأسف أنت ينقصك الحماس ..
- ربما .. لكن ينقصنى أيضًا أن أكون جراحًا ..
نظرت له (سوزان) مليًا .. ثم همست :
- نعم .. ولربما كانت هذه نقطة ضعفك ..
....

★ ★ ★

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ٢,٤٥ بعد الظهر :

جلس (بيلوز) فى قاعة المحاضرات نافد الصبر ، وعلى بعد منه جلس الطلاب الأربعة ، يتابعون محاضرة د. (آلان دروى) ، وحولهم خواء رهيب فى القاعة .. لقد ظن (بيلوز) ، أن اختيار قاعة المحاضرات فكرة لا بأس بها .. لكنه الآن وفى أول محاضرة ، لم يعد واثقًا من ذلك ، فالقاعة كبيرة أكثر من اللازم .. وبدا المحاضر مثيرًا للسخرية ، وهو يحاضر مقاعد فارغة ..

لكنهم كانوا يكتبون ما يسمعون فى اهتمام ـ برغم أنه كلام فارغ ـ كعادة الطلبة فى كتابة كل ما يخرج من شفتى المحاضر ، دون تفكير ولا تمييز ..

ووجد نفسه يفكر فيما سيقوله (ستارك) ، لو دخل ورأى هذا المشهد ..

★ ★ ★

لقد صار (جيرالد كيلى) رئيسًا لقسم صيانة الغلايات ، بعد كفاح طويل ، منذ كان فى الخامسة عشرة من عمره ..

هو رجل من أصل إيرلندى ، أشقر الشعر ، متورد البشرة ، يمتاز بكرش ضخم من فرط الشراب كل ليلة ،

وكان يتقاضى راتبًا ضخمًا ؛ لأن إدارة المستشفى تعرف أنه لا غنى عنه .. وأنه الرجل الذى يعرف كل آلة من آلات هذا الصرح الطبى الضخم ، كما يعرف كفه ..

جلس (كيلى) يراجع أوامر التشغيل لهذه النوبتجية .. ومنها بالوعة حجرة الممرضات ، التى تنسدّ مرة كل أسبوع .. إلخ ، وكان معه ثمانية رجال تحت إمرته ، أخذ يوزع عليهم المهام ..

كان هدير الآلات يصمّ الآذان ، لكنه كان معتادًا عليه .. بل ويميز كل آلة وسط الضوضاء .. لهذا أثار فضوله صوت شىء معدنى يطرق شيئًا معدنيًا آخر ، قادمًا من أعلى .. من ناحية اللوحة الكهربية الرئيسية ..

نهض ليرى هذا الشىء .. ودار كعادته حول الغلاية العملاقة ، مفتشًا عن مصدر الصوت ..

وعند اللوحة الكهربية ، رأى رجلًا نحيلًا يقف هناك .. رجلًا يرتدى زيًا من اللون الخاكى مفتوح الصدر .. وفى جيب حُلته عشرات الأقلام والمفكات الصغيرة ومسطرة .. وثمة (بادج) صغير كتب عليه (مؤسسة الأكسجين السائل) ..

هتف (كيلى) فى ذهول :

ـ يا إلهى !.. لم أدر أن هناك أحدًا هنا ..

ـ وأنا كذلك ..

كان الرجل النحيل يحمل أسطوانة خضراء للغاز المضغوط، كتب عليها بخط واضح (أكسجين) ..

قال الرجل :

- اسمى (داريل) .. (جون داريل) .. آسف لإفزاعك .. كنت أفحص خطوط الأكسجين المغذية للخزان الرئيسى .. والآن أنا فى سبيلى للخروج، فهلا أخبرتنى بأقصر طريق للخارج ؟..

- طبعًا .. من خلال ذلك الباب المؤدى إلى الصالة الرئيسية ..

- شكرًا ..

وقف (كيلى) يرمقه فى حيرة .. كيف استطاع هذا الرجل، أن يصل إلى هنا دون أن يراه ؟.. عاد لمكتبه، وأخذ يقلب أوراقه .. ثم تذكر شيئًا آخر أثار قلقه ..

لا توجد خطوط (أكسجين) فى غرفة الغلايات !

يجب أن يسأل (بيتر باركر) غدًا، عن هذا العامل الذى جاء ليفحص خطوط (أكسجين) لا وجود لها ..

لكن المشكلة هى أن ذاكرة (كيلى) كانت ضعيفة .. ضعيفة جدًا ...

★ ★ ★

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ٣,٣٦ بعد الظهر :

بدأ الظلام يسود (بوسطون)، وأضيئت مصابيح الشوارع .. كانت السماء ملبدة بالغيوم، والهواء البارد يتسلل إلى المكتبة، حيث جلست (سوزان) تراجع ما كتب عن الغيبوبة ..

لقد أثارت ضخامة الموضوع رعبها .. وأذهلها تشعبه وتفرعه بين العديد من التخصصات الطبية .. على الأقل حصرت عددًا كبيرًا من المقالات العلمية، التى تتحدث عن الموضوع ..

كانت مستغرقة، فلم تشعر بدخول (بيلوز) القاعة، ولا بجلوسه جوارها .. حتى أنه بدأ يسعل كى يجذب انتباهها - فرفعت رأسها تنظر إليه ..

- ما هذا ؟.. أحسبك أصبت بغيبوبة أنت الأخرى !..

نظرت له ونظر لها بضع دقائق، ولم يقل أحدهما شيئًا .. ثم إنها قالت وهى تتناول الصفحات التى كتبتها :

- تصوّر أن خمسين فى المائة فقط من حالات الغيبوبة، يتم تشخيصها .. والنصف الباقى يموت دون معرفة السبب ..

ثم مدت يدها تقلب بعض الأوراق :

ـ يعزون ٦٠ ٪ من الحالات إلى الكحول .. و ١٠ ٪ إلى السكتات الدماغية .. و ٣ ٪ إلى السموم والعقاقير .. والباقى مقسم ما بين الارتجاج والصرع وغيبوبة السكر والالتهاب السحائى ..

ـ لماذا لم تحضرى المحاضرة يا (سوزان) ؟

ـ أجبنى عن سؤال واحد : هل صحا (بيرمان) أو (نانسى) من الغيبوبة ؟

ـ طبعًا لا ..

ـ إذن ـ بصراحة ـ ما أقوم به هنا أكثر نفعًا من حضور محاضرات مملة ..

ـ كونى عاقلة يا (سوزان) .. أنت لن تنقذى الكون فى أول أسبوع لك فى قسم الجراحة .. إنك تسببين لى إحراجًا شديدًا بهذا الأسلوب ..

ـ أقدر ذلك .. صدقنى .. لكن بحثى عن أسباب الغيبوبة ، قد أفادنى كثيرًا .. تصور أن نسبة حالات غيبوبة التخدير فى هذا المستشفى ، تفوق معدلها فى الولايات المتحدة كلها مائة مرة ؟..

أشعر أننا بصدد اكتشاف مرض جديد .. أو اكتشاف أن تزاوج عقارين له نتائج قاتلة ..

وأردفت ضاحكة :

ـ سأصير شهيرة .. أنت تعرف أن مكتشفى الأمراض ، يصبحون أشهر مائة مرة ، من مكتشفى علاجها !..

وضع (بيلور) يديه على رأسه صائحًا :

ـ (سوزان) .. أنت مازلت ساذجة ، ولا تقدرين المسئوليات .. أنا سأعطيك الحق فى التغيب يومًا آخر ، لاستكمال مشروعك .. لكن إذا احتجت إليك ، فسأطلبك باسم د. (هويلر) .. وعليك أن تردى .. هل هذا واضح ؟

ـ ليكن .. لكنى بحاجة إلى نسخ مصورة من هذه المقالات .. هاك أسماؤها ..

وقفزت فارة من المكان ، قبل أن يستطيع الاعتراض .. فوجد نفسه يحدق فى بلاهة ، فى قائمة من سبعة وثلاثين مقالًا .. نهض وأحضر المجلات وبدأ يدسّ قصاصات ورقية عند موضع كل مقال .. ثم طلب من الفتاة المختصة أن تصوّر له نسخًا على حسابه ، من هذه المقالات ..

وأدرك أن (سوزان) قد أحسنت استغلاله ..

لكنه كان ضعيفًا أمامها بالفعل ..

واعترف لنفسه بذلك ..

* * *



نهض وأحضر المجلات وبدأ يدسّ قصاصات ورقية عند موضع كل مقال ..

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ٥ عصرًا :

كان على (سوزان) الالتجاء لقسم (الكمبيوتر)، لمعرفة عدد حالات الغيبوبة بعد التخدير فى مستشفى (بوسطون) ..

أخذت المصعد إلى الطابق الحادى عشر .. ودخلت غرفة الاستقبال .. وتناولت طلب بيانات، وجلست تملؤه ..

وعلى المكتب جلس رجل بدين مهندم، يتلقى الطلبات من الحاضرين، ويتأكد من موافقة الأقسام المختلفة هاتفيًا .. ثم يضع الطلب فى صندوق صغير على المكتب، ويحدّد لصاحب الطلب وقتًا تكون فيه المعلومات جاهزة .. وذلك حسب الدور ..

حدّدت (سوزان) فى طلبها، حالات التخدير التى تلتها غيبوبة، طيلة العام الماضى، ثم جلست تفكر فى الخطوة التالية ..

وهنا اقتحم المكان رجل نحيل فى الأربعين من عمره هاتفًا :

ـ (جورج) .. أريد عنوانك ..

قال الرجل البدين :

ـ تحت أمرك يا (هنرى شوارتز) .. نحن دائمًا على استعداد لمعاونة إدارة الحسابات .. فرواتبنا تحت قبضتهم !

ودون تردد كتبت (سوزان) اسم (هنرى شوارتز) ، فى خانة طالب البيانات .. ثم كتبت فى خانة الإدارة : (إدارة الحسابات) ..

وكان (شوارتز) قد انصرف ، بعد ما ترك طلباته وتلقى وعدًا باستلامها فى السابعة مساء .. فنهضت إلى الموظف الجالس ، وتظاهرت بأنها تسأله عن شىء ما .. ثم دست طلبها بين أوراق (شوارتز) دون أن يلاحظ الموظف ما حدث ..

ثم إنها شكرته وغادرت المركز ..

وفى تمام السابعة مساءً ، رفعت سماعة الهاتف ، وطلبت مركز (الكمبيوتر) ، وتحدثت فى ثقة :

ـ آلو .. إدارة الحسابات .. هل استلم مستر (شوارتز) البيانات المطلوبة منكم ؟

ـ نعم .. منذ دقائق خمس ..

وضعت سماعة الهاتف .. واتجهت ـ بالسؤال ـ إلى إدارة الحسابات فى الطابق الثالث ..

كان هناك ثلاثة موظفين فقط يعملون مساء .. واتجهت إلى حيث جلس (هنرى شوارتز) ، يراجع فى شغف البيانات التى حصل عليها لتوه من مركز (الكمبيوتر) .. مشت إليه وحيته ثم قالت :

ـ لقد حدث خلط بين بياناتك وبياناتى .. البيانات التى طلبتها أنا تخص حالات الغيبوبة فى المستشفى .. وقد خلطوها بأوراقك فى مركز (الكمبيوتر) .. فهلا سمحت لى باستردادها ؟

قلب الرجل الأوراق ، حتى وجد الورقة التى تريدها .. ناولها إياها ثم غمغم بشك :

ـ لكنها مطلوبة باسمى أنا ..

ـ لهذا حدث الخلط .. لكنك ترى أنها لا تهمك بالتأكيد ..

ـ يجب أن أكلم (جورج) عن هذا ..

قالت وهى تأخذ الورقة متجهة للباب :

ـ لا داعى .. ناقشت معه الأمر ، وقد وعدنى بأنه لن يتكرر .. شكرًا لك ..

★ ★ ★

جلست مع (بيلوز) فى استراحة الطابق الخامس ، وكان هذا الأخير يلتهم طبق كريمة ، أعطاه له أحد المرضى الذى كان يشعر بغثيان فلم يستطع التهامه ..

كان (بيلوز) مندهشا .. فـ (سوزان) التى لم تحضر محاضرات الصباح ، مازالت بالمستشفى حتى الثامنة مساء ..

قالت (سوزان) وهى تخطط على البيانات بقلم أصفر سميك :

ـ كما قلت يا (بيلوز) ، لم تكن هناك حالتان ، ولا ست حالات ، بل إحدى عشرة حالة !

ظهر الاهتمام على وجهه .. وتغيرت لهجته .. وسألها :

ـ هل أنت متأكدة ؟

ـ بيانات (الكمبيوتر) تؤكد ذلك ..

ـ وكيف حصلت عليها ؟

ـ ساعدنى (هنرى شوارتز) .. كان لطيفًا ومجاملًا !

مال (بيلوز) يتأمل الأوراق .. ثم غمغم :

ـ إن هذا المستشفى كبير يا (سوزان) .. هل تعرفين كم حالة نراها هنا كل يوم ؟

ـ حالات الوفاة أسبابها معروفة ، ويمكنك دائما أن تجرى الصفة التشريحية لها .. أما حالات الغيبوبة هذه ، فلا سبب لها ، ولا يمكن تشريحها لأن أصحابها أحياء ..

ـ هناك مريضان ماتا بسبب توقف التنفس اليوم .. ولن يجد التشريح سببًا لهذه الوفاة ..

ـ هل حقًا حدث هذا ؟ ومم كانا يعالجان أصلًا ؟

ـ لا أذكر .. واحد كان يعانى جلطة وريد ساق .. والآخر .. ربما شلل رعاش ..

ـ وما اسماهما ؟

ـ (كروفورد) و (فيرار) .. الطابق السادس ..

ـ وهل سيجرون التشريح عليهما الليلة ؟

ـ الليلة ، أو صباح غد ..

شكرته فى حرارة ، على تصوير الأوراق التى طلبتها ، وعلى هذه المعلومة الهامة ، ثم إنها تركته عائدة إلى غرفتها ..

ربما للمرة الأولى منذ الصباح ..

* * *

الاثنين ٢٣ فبراير الساعة ٨,٣٢ مساءً :

يعتبر علم (الباثولوجى) وتشريح الموتى ، لمعرفة سبب وفاتهم ، هو الجانب المظلم من الطب .. التخصص الذى يبدأ بعد فشل العلاج والموت ..

وكانت (سوزان) تفكر فى هذا ، وهى تهبط درجات السلم ، متتبعة الأسهم إلى حيث قسم (الباثولوجى) .. لا تسمع سوى خطواتها على الأرض الخرسانية .. ولم تكن قد رأت سوى عملية تشريح واحدة فى حياتها ، زرعت فى روحها الشعور بتفاهة الحياة ووهن الإنسان ..

دفعت الباب الذى كتب عليه «للعاملين فقط» ، داخلة إلى معمل (الباثولوجى) .. منضدة طويلة من الطوب فى وسط القاعة ، فوقها أجهزة مجهر ، وشرائح زجاجية ، وكيماويات مختلفة .. وكانت رائحة (الفورمالين) تملأ المكان .. وعلى الحوائط رفوف ملأى بآنية زجاجية .. وتبينت أن هذه الآنية تحوى أجزاء آدمية عديدة .. رأت إناء زجاجيًا ، يحوى رأسًا بشريًا مقسومًا بالطول إلى شطرين .. والورقة الملصقة على الإناء كتب عليها باللاتينية : (سرطان بلعوم ـ عينة ٣٠٤ ـ أ ٦ ـ ٣٢) .

ارتعدت (سوزان) ، وأشاحت بوجهها عن هذه الرفوف .. مشت إلى نهاية الردهة ، إلى حيث وجدت بابًا زجاجيًا كبيرًا ، ومن وراء الباب وصلت لمسمعها أصوات .. فوقفت تتساءل : هل تدخل ؟

ـ هل أنت طالبة ؟

قالها طبيب خرج من باب جانبى وهو يبتسم .. ولم ينتظر ردّها ، بل اتجه لصنبور الماء ليغسل يديه .. وسألها عما إذا كان يستطيع خدمتها ..

فقالت :

ـ أسأل عن مرضى متوفين فى الطابق السادس .. مريضين يدعيان (فيرار) و(كروفورد) .. هل تم تشريحهما ؟..

نظر إلى ورقة معلقة على الحائط .. ثم قال :

ـ نعم .. هما هنا .. إنهم (يعملون) فى (كروفورد) الآن ..

ودعاها للدخول ، فاستجابت .. كانت الحجرة واسعة جدًا ، ذات إضاءة معتمة ، وحوائطها مغطاة بالقيشانى الأبيض ، المهشم فى عدة مواضع .. وفى وسطها منضدتان من رخام بُنى بشكل مائل ، ينزلق من فوقهما مجرى مائى دائم ، نحو بالوعة على الأرض ..

وكان جسد ما كان (كروفورد) يومًا ما ، يرقد على المنضدة الرخامية ، على حين وقف جواره طبيبان .. أحدهما يزن الأعضاء التى تم استخراجها على ميزان صغير ، بعد ما وضعها فى دلو ..

ورأت أنهما لاحظا وجودها ، فدنت منهما وألقت التحية ، ثم تساءلت عما إذا كانا قد عرفا سبب الوفاة ، فأجابا بالنفى .. وقالا إنهما لا يتوقعان معرفته ، لأنهما مرا بنفس الخبرة مرارًا هذا العام ، ولم يجدا أى مرض فى الرئة أو المخ يبرّر ما حدث ..

شكرتهما (سوزان) ، وعادت إلى الغرفة الخارجية ، وقد غلبها الدوار والغثيان .. عادت إلى الطبيب الذى جلس يرشف القهوة ، ويقضم الكعك على مكتب صغير ، بينما يوقع على كومة من التقارير الطبية ..

ـ يبدو أننى لا أتحمل رؤية التشريح ..

إنه شىء يأتى بالتعود ككل شىء آخر ..

وبعدما استأذنته أخذت ملف (كروفورد) ، وملف (فيرار) ، وشرعت تنقل ما بهما فى مفكرتها السوداء الصغيرة ..

* * *

الثلاثاء ٢٤ فبراير الساعة ٨,٠٥ صباحًا :

جرس المنبه يدق ، و (سوزان) فى فراشها الدافئ الحبيب .. تجد صعوبة جمة فى الاستيقاظ .. ، وبعد قليل عاد عقلها يعمل ، متذكرًا أحداث اليوم السابق ، حتى الثالثة صباحًا ، ظلت تراجع المقالات التى صوّرها (بيلوز) لها ، وكل ما دونته عن حالات الغيبوبة .. ومعها أدركت أن المشروع بالغ التعقيد ، يتطلب الكثير من المثابرة والجهد ..

لكن هذا زاد من حماستها وقوى من عزمها ..

أخذت حمّامها ، وتناولت الإفطار ، وارتدت ثيابها ، ثم هرعت إلى المستشفى ، قابلت زميلها (نايلز) ، الذى تساءل عن سبب عدم حضورها المرور على المرضى ، وقد تجاوزت الساعة ..

قالت فى شىء من التحدى :

ـ يمكننى أنا أن أسألك ذات السؤال ..

ـ كنت أجرى أشعة على رأسى ، بعد سقطة البارحة !..

هيه !.. لا تقلقى ..!.. كل ما وجدته الأشعة هو كبرياء جريحة .. لكن هذه لا علاج لها هنا كما تعلمين ..

ضحك وضحكت .. وصعدا معًا إلى الطابق الثامن .. وهناك كانت الإدارة الطبية فى الغرفة رقم ٨١٠

كان مدير الإدارة هو د. (ج . نيلسون) ، نائب د. (ستارك) ، وكان ذا نفوذ قوى فى المستشفى ، لكن ليس كنفوذ د. (ستارك) ..

فلم تكن له ديناميكيته ولا شخصيته الجذابة القوية ..

قدمت نفسها للسكرتيرة الباسمة ، على أنها واحدة من طلبة د. (نيلسون) ، ثم جلست تتأمل المكتب الفاخر ، والأثاث الذى يدلّ على مرتبة عالية ، حققها د. (نيلسون) لذاته .. بعد أعوام من الجهد ..

وبعد قليل دعتها السكرتيرة للدخول ..

كان مكتب (نيلسون) يغص بالأوراق والكتب المبعثرة فى كل مكان ..

وعلى المكتب جلس (نيلسون) يدخن الغليون ، دعاها للجلوس على مقعد جلدى عتيق .. وسألها عن أية خدمة تريد ؟

ـ إننى مهتمة بموضوع الغيبوبة ، التى تحدث دون سبب ظاهر ..

اتكأ إلى الوراء فى كرسيه .. وغمغم :

ـ الغيبوبة ظاهرة أكثر منها مرض .. وسببها هو ما يثير شغفنا ..

فأى سبب يثير اهتمامك أنت ؟

ـ أتحدث عن الحالات التى تحدث فى هذا المستشفى ، بعد عملية التخدير .. وعددها يقترب من اثنتى عشرة حالة ..

ـ كيف عرفت هذه المعلومات يا مس (هويلر) ؟

كان صوته ونظراته قد تبدلا تمامًا عن ذى قبل .. لكن (سوزان) لم تلمس هذا التبدل المفاجئ ..

ـ حصلت على هذه المعلومات بالكمبيوتر ..

وناولته الورقة التى حصلت عليها أمس .. وأردفت :

ـ سترى هنا أن شيئًا ما ، يربط كل هذه الحالات ببعضها .. وما أحتاج إليه منك ، هو السماح لى باستعمال الكمبيوتر ، لمعرفة سير الحالات فى الأعوام السابقة ، وما إذا كان ثمة شىء يربط بينها ..

بدت عليه الصرامة ، وتغير أسلوبه فى المعاملة بشكل ملحوظ ..

نصحها بأن تدرس موضوعًا آخر ، لأن موضوع الغيبوبة قد قتل بحثًا .. لكنها أبدت إصرارها ونهضت لتنصرف ..

أما ما أثار دهشتها ، فهو أنه ثنى الورقة التى عليها بيان (الكمبيوتر) ، وقال لها فى فتور :

ـ إن هذا البيان سرّى .. وليس من حقك الاحتفاظ به ..
نظرت له هنيهة ، ثم استدارت منصرفة ، دون كلمة واحدة ..
أمسك بالهاتف ـ بعد رحيلها ـ وأدار القرص طالبًا رقمًا ..

★ ★ ★

جلس د. (هاريس) رئيس قسم التخدير على مكتبه ، يقلب الأوراق ، كأن (سوزان) لا وجود لها فى الحجرة .. وبرغم برودة الطقس ، كان يرتدى قميصًا قصير الأكمام ، لتلتمع الإضاءة الفلورسنت القوية على ذراعيه الضخمين ، فيكتسيا لون البرونز ..
قالت (سوزان) فى كياسة :
ـ أعترف أننى خرجت عن طورى أمس .. فقد كانت علاقة شخصية عمرها دقائق ، تربطنى بهذا المريض .. وحين تبينت أنه غاب فى حالة السبات ، فقدت وعيى .. وخرجت عن حدود اللياقة ، و ..
ردّ (هاريس) مقاطعًا ببرود :
ـ لذلك رجعت إلى طبيعة (الحريم) !..
تصاعد الدم إلى رأس (سوزان) ، لكنها تمالكت أعصابها .. وردّت :

ـ لو كان هذا رأيك فى عمل المرأة ، فهذا شأنك .. لكن السلوك العاطفى أمر مفهوم ، سواء للرجال أو النساء .. لكننى لم آت لمناقشة هذه الأمور .. جئت أعتذر عن سلوك غير مهذب منى ، لا عن كونى خُلقت امرأة ..
وابتلعت ريقها وأضافت فى توتر :
ـ إذا كان كونى امرأة يزعجك ، فتلك ـ دون شك ـ مشكلتك ..
ـ أنت تعودين لذات السلوك غير المهذب يا عزيزتى ..
نهضت (سوزان) واقفة .. وثبتت عينيها فى وجهه :
ـ آسفة على حضورى لك .. إن حديثنا لن يؤدى إلى نتيجة ما .. بعد إذنك ..
استوقفها صوته قبل أن تجذب مقبض الباب إذ قال :
ـ الواقع يا مس (هويلر) أننى لا أومن بالنساء فى مهنة الطب .. إنهن يتعاملن معه على أساس أنه لعبة .. موضة .. بالإضافة إلى ذلك ، هنّ عاطفيات أكثر من اللازم ..
قاطعته (سوزان) فى عصبية :
ـ هذا كلام فارغ يا د. (هاريس) .. أنا لم آتِ لأسمع رأيك فى المرأة والطب .. أمثالك هم المسئولون عن جعل المهنة غير قابلة لتحديات التطور العلمى ..

ضرب (هاريس) المكتب بقبضة يده ، فتطايرت الأقلام والأوراق ..

وفى اللحظة التالية كان واقفًا أمامها .. أجفلت (سوزان) من هذه الثورة ، حتى توقعت أنه سيجنّ ويضربها .. سمعته يقول :

ـ مس (هويلر) .. أنتِ لست المسيح الذى سينقذنا بمعجزة من مشكلة قتلناها بحثًا .. إن لك تأثيرًا مدمرًا على هذا المستشفى .. وأعدك بأنك لن تكونى هنا خلال أربع وعشرين ساعة .. والآن اخرجى من مكتبى !..

وفرد إصبعه نحو الباب ، كمسدس سريع الطلقات ، فخرجت (سوزان) مهرولة ، والدموع فى عينيها خوفًا وغضبًا ..

★ ★ ★

الثلاثاء ٢٤ فبراير الساعة ١١ صباحًا :

كلّا .. كلّا .. لن تبكى ..

كانت تمشى فى الممر ، محاولة ألا تلتقى عيناها بعيون من يقابلها .. فقد كان وجهها يظهر ما تشعر به من انفعال ، وتحول خداها وجفناها إلى اللون الأحمر القانى .. تشعر بالمهانة والحنق ..

هل هى حقًّا أحنقت (هاريس) ، إلى درجة أنه كاد يضربها ، حين قفز من مكتبه ليواجهها ؟.. إنها تحس الوحدة والانعزال فى هذا المستشفى .. هل هى حقًّا حمقاء إلى هذا الحدّ ؟ هل الجميع على حقّ ؟.. لكنها مصرّة على المضى فيما اعتزمت عليه .. لن تتخلى عن (نانسى) الراقدة فى العناية المركزة ، تنتظر أن ينقذها أحد ..

ليكن ما يكون .. ستقابل د. (ستارك) رئيس قسم الجراحة ؛ ليعاونها بنفوذه فى الحصول على ما تريد من (الكمبيوتر) ..

كاد (بيلوز) يموت هلعًا حين أخبرته بما اعتزمته :

ـ هل جننتِ ؟.. تقابلين (ستارك) ؟.. إنه سيأكلك حية .. إن (هاريس) هو حمَل إذا ما قورن بـ (ستارك) !

لكنها كانت مصممة .. وعرفت من (بيلوز) ، أن (بيرمان) لم يعد فى العناية المركزة ، بل نقل إلى ما يُدعى (معهد جافرسون) ..

- وما هو هذا المعهد ؟

- هو معهد للعناية المركزة ، تابع لمؤسسة الحفاظ على الصحة .. إدارته إدارة خاصة ، وإن كان تمويل إنشائه حكوميًا ..

- لم أسمع عنه قط .. هل زرته ؟

- أتمنى ذلك .. لقد رأيته من الخارج ، فوجدته بناء عصريًا عملاقًا .. لفت نظرى أنه بلا نوافذ فى الطابق الأول .. ويسمح بزيارته للجماعات الطبية ، فى الثلاثاء الثانى من كل شهر .. ويُقال إنه يسمح بدخول كل حالات الغيبوبة ، التى تكتظ بها المستشفيات ..

- لكن (بيرمان) حالة حديثة .. فكيف نقل هو وظلت (نانسى) ؟

- العبرة باستقرار الحالة .. حالته مستقرة لا كحالة (نانسى) ، التى تصاب بمضاعفات طيلة الوقت .. وبمجرد أن أجد منها استقرارًا ، سأقوم بنقلها إلى معهد (جافرسون) ..

* * *

الثلاثاء ٢٤ فبراير الساعة ١١,٤٥ صباحًا :

هرع (بيلوز) للحاق بموعد إجراء جراحة بواسير ، لرجل فى الثانية والستين من العمر .. هى عملية تافهة ، لكن (بيلوز) كان يحبّ الجراحة حقًا .. وبمجرد أن يبدأ وينتابه إحساس المسئولية المقدس ، الذى يعطيه إياه المبضع فى يده ، لم يكن يعنيه ما يقوم به ولا أهميته ..

اتجه (بيلوز) إلى المكتب الرئيسى فى قسم الجراحة ، وسأل الموظف عن غرفة المريض .. فنظر الموظف إلى الجدول :

- د. (بيلوز) ؟

- بشحمه ودمه ..

- أنت معفى من هذه الجراحة !

- من ؟.. ومتى ؟

- ربما كان من الأوفق أن تقابل د. (تشاندلر) فى مكتبه ..

كان د. (تشاندلر) ، هو كبير الأطباء المقيمين ، الذى يوزع الجراحات عليهم .. وهو همزة الوصل بينهم وبين كبار الإخصائيين .. فى الثالثة والثلاثين من العمر .. أشقر الشعر .. وسيم المحيا ..

جلس (بيلوز) على المقعد الخشبى .. ولم يتكلم أى منهما فى البداية ، ثم قال (تشاندلر) إنه آسف لإعفاء (بيلوز) من حالة البواسير تلك ، وقال له إن (هاريس) اتصل به هاتفيًا ، وكان محنقًا جدًا ، لأن أحد الطلبة فى المجموعة عاكف على دراسة حالات الغيبوبة .. ويظن (هاريس) أن (بيلوز) ، هو من حرض هذا الطالب على دراسة الموضوع .. ونصحه ـ فى إخلاص ـ أن يقنعه بالتخلى عن هذا البحث ..

لكن هناك نقطة أكثر خطرًا :

ـ ما هو رقم خزانتك فى غرفة الجراحة ؟

ـ ثمانية ..

وماذا عن ٣٣٨ ؟

ـ كانت خزانتى لفترة مؤقتة .. استعملتها أسبوعًا ، ثم أعطونى رقم (٨) ..

ـ هل تعرف طريقة فتحها إذن ؟

ـ ربما .. إن فكرت قليلًا ما هو الموضوع بالضبط ؟

ـ لقد وجد د. (كاولى) أن هذا الدولاب (٣٣٨) ملىء بالعقاقير .. بما فى ذلك المخدرات .. وكان اسمك فى قوائمنا أمام رقم (٣٣٨) وليس (٨) ..

ـ لكن (والترز) هو من طلب منى استعمال (٣٣٨) ، ثم أعطانى رقم (٨) بعدها ..

ـ إن الأمر خطير .. فلا تخبر أحدًا به .. أعتقد أن إدارة المستشفى ستسألك بهذا الخصوص ، وهم لا يريدون انتشار أخبار ..

غادر (بيلوز) الغرفة حائرًا ..

هو كان واثقًا بأن اسمه سيربط باسم (سوزان) فى موضوع الغيبوبة ، لكن موضوع العقاقير هذا مفاجأة حقيقية له .. لماذا يقوم شخص بتخزين عقاقير بهذا الشكل ؟.. ما دور (والترز) فى الموضوع ؟..

هل يخبر (سوزان) بهذا أم لا ؟

★ ★ ★

الثلاثاء ٢٤ فبراير الساعة ٢,٣٠ بعد الظهر :

كان مكتب رئيس قسم الجراحة رحبًا رائعًا .. به نافذتان تحتلان جدارين كاملين، والمكتب من الخشب الأسود، عليه لوح من الرخام الأبيض.. وثمة مكتبة بها جزء متحرك، يفتح على بار ملىء بالزجاجات والأكواب، وعلى المكتب جلس (ستارك)، تنعكس صورته فى عشرات المرايا إلى جانبه .. يرتدى حلة من اللون البيج تناسبه تمامًا؛ وقد أرجع شعره الأشيب إلى الوراء، وجلس يقرأ ورقة فى يده بعينين خضراوين حادتين، من خلف منظار هلالى العدسات، ولم تتمالك (سوزان) أن شعرت بالانبهار به..

قال لـ (سوزان) بعد برهة وهو يبتسم :

ـ إن ما تقولين يا آنسة لا بأس به .. لكن إثباته مستحيل ..

ثم رفع عينيه نحوها ، وأردف :

ـ لم لا تطلبين ما تريدين من الإدارات المعنية ؟

ـ حاولت .. وقوبلت بمعاملة غريبة ، كأننى طفلة يجب أن تُقصى عما يحدث .. حتى أننى بدأت أعتقد أن شيئًا غير مشروع يجرى هنا ..



ثم رفع عينيه نحوها ، وأردف :

ـ لم لا تطلبين ما تريدين من الإدارات المعنية ؟..

وصمتت انتظارًا لردّ فعله الغاضب أو الساخر .. لكنه دار حول محور كرسيه ، وأخذ يتأمل النافذة ثم غمغم :

ـ إن لك خيالًا خصبًا يا دكتورة (هويلر) ..

كان نبأ العثور على عقاقير فى خزانة (بيلوز) يؤرقه .. لكنه احتفظ بالسرّ لنفسه .. بالتأكيد هناك أشياء غير مشروعة تتم فى هذا المستشفى .. لكنها لا تعرف ما يعرفه على كل حال ..

ـ إن د. (هاريس) يهدد بإنهاء تدريبى فى المستشفى ..

ـ من الصعب التفاهم مع د. (هاريس) ، فهو انفعالى إلى حدّ كبير ، برغم كفاءته .. لكنى سأرى ما يمكن عمله بالنسبة لك فى هذا الصدد .. لكنى أحذرك .. ستثيرين عداوات كثيرة حولك ، حين تتعاملين مع هذا الموضوع الشائك ..

ثم أوصلها إلى الباب فى لطف ، وفتحه لها .. فقالت (سوزان) :

ـ يسرنى يا د. (ستارك) ، أنك على نقيض سمعتك التى تقول : إنك تلتهم البشر أحياء !

ضحك فى ثقة :

ـ ربما تجدين هذه السمعة صحيحة ، إذا ما حضرت المرور معى صباحًا !..

فما إن خرجت حتى طلب سكرتيرته ..

هو يريد أن يعرف ما فعله (بيلوز) بشأن العقاقير .. إن نجاحه ـ (ستارك) ـ قائم على الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة ..

فلو تهاون لدمّر أولئك الأغبياء سمعة المستشفى الذى كافح كى يبنيه ..

★ ★ ★

الأربعاء ٢٥ فبراير الساعة ٨ صباحًا :

لم تذهب (سوزان) للمستشفى هذا الصباح ..

كانت قد صممت على زيارة معهد (جافرسون) الشهير هذا ..

نعم هى تستطيع دخوله ـ بقليل من الحظ ـ مرتدية ثياب ممرضة أو طبيبة ، ولن يكون هناك مشكل ما ، طالما أن الفوضى تعمّ كل المستشفيات ..

المشكلة الحقيقية ، هى أنها لا تعرف المبنى .. وستضلّ طريقها هناك حتمًا ، فيفتضح أمرها ..

ووجدت الحلّ المناسب بناء على نصيحة (بيلوز) .. ستذهب إلى مجلس المدينة ، لتبحث عن رسوم هذا المعهد ، وتعرف جغرافية الطابق الأول منه ، وتحفظها عن ظهر قلب ..

وقد كان ...

ومشت بين زحام المارة ، وتحت الأمطار المنهمرة ، شاردة الذهن .. لا تدرى هنا ما الذى جعلها تنظر إلى اليسار ، حين رأت رجلًا يرتدى معطفًا أسود اللون ، وقبعة ، توقف عن السير حين نظرت (سوزان) له ..

عادت تواصل سيرها ماشية فوق الجسر ، تتأمل مياه النهر القاتمة .. ثم نظرت وراءها ..

كان ذلك الرجل واقفًا على مسافة يرمق الماء مثلها !

غريب هذا !.. ليس من المعتاد أن يقف مجنون سواها يرمق الماء ، فى هذا الجو اللعين .. فى الواقع لم يكن سواهما على الجسر ..

شعرت بالقلق ، وقررت أن تعبر إلى الجهة الأخرى ، لتركب المترو عائدة إلى دارها .. وهنا وجدت الرجل يسير وراءها فى إصرار وتؤدة ..

أسرعت السير ، ثم دخلت أحد الشوارع الجانبية ، ووقفت تنتظر .. وكانت النتيجة إيجابية .. لقد ظهر الرجل مسرعًا عند مدخل الشارع ، ثم نظر نحوها ، وتأكد من مكانها .. ثم عاد يجدّ السير كأنه ماض فى طريقه المعتاد ..

هرعت إلى محطة المترو الأرضى ، ونزلت درجات السلم ..

وحين رفعت رأسها ، وجدت ذلك الرجل يهبط الدرجات خلفها !

وهنا سمعت صوت المترو قادمًا .. مترو ملىء بالناس حتمًا .. زادت سرعتها على درجات السلم ، لتجد أن الأبواب تنغلق .. والمترو يتحرك من مكانه .. صرخت لا شعوريًا :

ـ بربك انتظر !

وشرعت تجرى جوار المترو الذى تتزايد سرعته أكثر فأكثر .. ثم تعدّاها وغاب فى النفق .. وهى تلهث دامعة ..

وغدت المحطة خاوية تمامًا ..

وهنا ظهر الرجل .. فى تؤدة يتقدم منها .. ثم يشعل لفافة تبغ .. يلقى بعود الثقاب .. يسحب بعض أنفاس من لفافته قبل أن يدنو منها أكثر .. إنه ـ وهذا واضح ـ يستمتع بالرعب الذى يسببه لها ..

ورأته يمدّ يده فى جيبه ، باحثًا عن شىء ما .. مسدس ؟.. ربما سكين ؟.. لم تنتظر أكثر .. وثبت من على حافة الرصيف ـ أربعة أقدام من الأرض ـ وجرت فوق القضبان داخل النفق المظلم ..

ولكن القضبان تداخلت .. واشتبك كعب حذائها بين قضيبين فتعثرت .. حاولت انتزاع قدمها دون جدوى .. إن الرجل آت خلفها لا محالة !.. يجب أن .....

ذلك الهدير العالى .. إنه قطار قادم نحوها !..

الضوء الباهر وذبذبات العجلات ، وأطنان الصلب التى ستمرّ فوق قضيب ما .. ربما هو هذا القضيب ..

الضوء يتزايد !.. انتزعت قدمها من الحذاء وتكوّرت حول نفسها متدحرجة إلى جانب القضيب .. وشعرت بالمترو يمرّ كالعاصفة جوارها ..

غطى العرق جسدها كله ، وأخذت ترتجف غير مصدقة .. هى حية ترزق ، لكن جسدها ملىء بالرضوض ، وأزرار ثوبها تمزقت وتبعثرت حاجياتها .. ومن الغريب أن حذاءها خرج من بين القضبان بسهولة حين ضغطت عليه لتخرجه ..

رأت أناسًا يحيطون بها ليساعدوها .. كلهم يتكلمون فى آن واحد ..

كانت فى حال بين الخيال والواقع .. كأن ما عاشته هو مجرد كابوس ، فلا يوجد رجل ذو معطف أسود ..

أبت أن يحضروا لها الإسعاف .. هى لا تريد سوى العودة لدارها .. دارها الحبيبة .. ومع الآخرين ركبت القطار عائدة ..

★ ★ ★

الأربعاء ٢٥ فبراير الساعة ١,٣٠ بعد الظهر :

كان اليوم سيئًا بالنسبة لـ (بيلوز) .. أنتم تذكرون أن (سوزان) لم تشارك فى المرور الصباحى معه . ولكن (ستارك) كان هناك ، وقد سأله عنها ، ولماذا لم تحضر المرور ؟.. فانفجر الحاضرون ضحكًا ، وصعدت الدماء إلى وجه (بيلوز) ، الذى تلقى محاضرة عن المواظبة ، وعن مسئوليته الكاملة عن التزام من يشرف عليهم ..

نعم كان اليوم سيئًا .. فطيلة المرور ظلّ (ستارك) يوجه أسئلة عسيرة لـ (بيلوز) بالذات ، ويرفض أية إجابة عليها من سواه ..

وبعد أن انتهى المرور ، أخذه منتحيًا به جانبًا ، وقال له : إن أداء (بيلوز) سيئ .. وأقل ـ بمراحل ـ عما تتوقعه منه إدارة المستشفى ، بل وسأله عما تمّ فى موضوع العقاقير التى وجدوها فى الخزانة (٣٣٨) ..

وجن جنون (بيلوز) ، وأزمع أن يناقش (والترز) بشأن هذه الأشياء فى دولابه .. لكنه فوجئ بأن (والترز) متغيب عن العمل .. متغيب للمرة الأولى ، منذ خمسة وعشرين عامًا ؟..

ذهب لشئون الأفراد ليطلب رقم هاتفه .. فلم يجد سوى عنوانه (١٨٣٣ شارع ستيوارت ـ روكسبرى) ..

وعلى الفور استقل سيارة أجرة إلى هناك ، تاركًا مسئولية العمل لزميله (نوريس) فى فترة غيابه ..

كان فى أمس الحاجة إلى إنهاء موضوع العقاقير فورًا .. فمركزه فى المستشفى قد تزعزع كثيرًا .. و (والترز) هو الوحيد الذى يقدر على تفسير كل هذا ..

كانت سيارة الأجرة تمضى فى شوارع ضيقة حقيرة تحت الأمطار .. وعلى الجانبين مبان قديمة متهالكة ، وهوت السيارة فى مطب مليء بالمياه القذرة ، مما جعل رأس (بيلوز) يصطدم بالسقف ..

وأخيرًا وصل إلى هدفه .. فدفع للسائق أجره .. ووقف تحت السيول يرمق السيارة المبتعدة ، متسائلًا فى نفسه عما إذا كان من الأوفق لو جعل السائق ينتظره ..

اجتاز مدخلًا قذرًا مغطى بقطع الزجاج المهشمة .. صالة متهالكة وسطها سلم قديم محطم ، وعلى الغبار آثار أقدام حديثة ..

صعد فى السلم إلى الطابق الثانى .. رائحة الهواء العطنة الثقيلة ، وخيوط العنكبوت تتدلى من السقف .. ثم نزل السلم مرة أخرى ..

وهنا سمع صوت دقة ، قادمًا من خلفية المنزل ..

ترنّد (بيلوز) وتسارع نبضه .. هو ذا الصوت مرة أخرى ..

سار نحو مصدر الصوت ، فشعر بحركة على يساره ، جعلت الدماء تتجمد فى عروقه .. دقّق النظر ، فأدرك أنه يرى فئرانًا تهرع فارّة إلى جحورها ، بعد ما عبثت ببعض الصناديق من الورق المقوّى ..

كان هناك باب جوار الصناديق .. فتحه (بيلوز) ببطء .. ثمة قبو يسوده الظلام .. أخرج بطاريته الصغيرة فأضاءها .. نزل السلم المظلم ببطء ، ليبرهن لنفسه أنه ليس خائفًا إلى هذا الحد ..

ثمة باب صغير أدار مقبضه .. فوجد نفسه فى غرفة كبيرة ، بها أثاث بال ، وفراش متهالك مغطى بورق الجرائد .. يوجد باب صغير يؤدى ـ غالبًا ـ إلى حمام ..

ودفع (بيلوز) الباب ، وراح يدور بضوء البطارية على السقف .. والحوض .. ثم ....

صرخ صرخة مكتومة ، وألقى بالبطارة فتهشمت ، وساد الظلام .. شرع يركض فى اتجاه السلم .. اصطدم بالحائط والهلع يغزو عقله .. أخيرًا وجد السلم .. أخذ يصعد فيه ، متحسسًا دربه ..

ولم يهدأ حتى وجد نفسه خارج المنزل الرهيب ..

لن ينسى ما عاش ما رآه داخل الحمام .. كان (والترز) هناك .. معلقًا من خطاف كبير .. عيناه كانتا مفتوحتين ، والدم المتجمد يغطى فاه .. وكان ميتًا للغاية إذا صحّ هذا التعبير ..

لقد اعتاد رؤية الفظائع فى غرفة العمليات ..

لكنه لم ير قط أفظع من جثة (والترز) ..

* * *

الأربعاء ٢٥ فبراير الساعة ٥ مساءً :

إلى غرفتها دخلت (سوزان) منهكة مفككة الأوصال، بعد ما عاشته من انفعالات هذا الصباح .. أضاءت الأباجورة جوار الفراش بضوئها الخافت ..

وهنا سمعت صوتًا غريبًا خلفها ..

تصلبت برهة، وأرهفت السمع، لكن الصوت لم يتكرر ..

اتجهت إلى الحمام، وأضاءت المصباح الفلورسنت .

وهنا شعرت بشيء يثب خلفها .. ورأت ومضة السكين .. ثم أحسّت بضربة عنيفة على رأسها، جعلتها تدور مصطدمة بالحائط .. حاولت أن تصرخ، لكن الصرخة احتبست في حلقها ..

شعرت بمهاجمها يضغط على عنقها دون هوادة .. يدان كالفولاذ .. وعرفت الرجل .. ذلك الذي تبعها في محطة المترو .. وشعرت بنصل السكين تحت ذقنها .. ثم ـ دون إنذار ـ تركها تسقط على أرض الحمام .. ركلها فتهاوت على ركبتيها وسالت من شفتيها الدماء ..

كان وجهه مجدورًا .. وعلى شفتيه ابتسامة شيطانية .. وكان يقول :

ـ للأسف إن التعليمات التي لديّ، هي أن أكتفي بتحذيرك، إن بعض الناس لا يروق لهم ما تقومين به في الفترة الأخيرة، وإذا لم تكفّي عن ذلك، سأضطر إلى زيارتك مرة أخرى ..

ثم أردف وهو يمسك شيئًا في يده :

ـ لربما قمت بزيارة لهذا الطفل .. ولربما ترتب على ذلك أن يقتل في حادث مؤسف ..

ورمى هذا الشيء إليها .. هي صورة فوتوغرافية لأخيها الصغير (جيمس)، الذي كان في (ميريلاند) في هذه اللحظة .

ـ ولا داعي لأن أؤكد أن هذه الزيارة سرّ بيننا .. ولجوؤك للشرطة سيجعل العقاب أشدّ ..

ثم تركها مغادرًا الحمام، وسمعت (سوزان) باب الشقة يغلق ..

تكومت حول نفسها مولولة .. لقد أنساها الفزع، كل الخطط الوهمية التي أعدتها في الماضي للحظة كهذه .. إصبعان في عين مهاجمها، أو ركلة أسفل بطنه .. نسيت كل هذا ..

ثم كيف عرف هذا الشيطان اسم أخيها ، وكيف دخل الشقة ؟

هرعت إلى باب الشقة ، وأغلقته بالمزلاج .. أما الشىء المخزى الذى فطنت إليه ، فهو أنها بللت نفسها كالأطفال من فرط الرعب ..

لكنها فطنت لمعنى هذا التهديد ..

إنها قد وصلت ـ بالتأكيد ـ إلى شىء كبير وخطير ، ولابد أنها فى الطريق الصحيح ، حتى لو كانت لا تعرف معنى ذلك ..

وقفت تحت (الدوش) تغتسل .. وتزيل الدماء التى سالت على شفتيها ..

هل تخبر (بيلوز) ؟.. لا .. هو لن يكون موضوعيًا .. فكرت فى د . (ستارك) العقلانى .. الذى لن يتعامل معها كأنثى أو طالبة ، بل كصديق ..

خرجت من الحمام واتصلت بمستشفى (بوسطون التذكارى) ، فأوصلتها عاملة الهاتف بـ د. (ستارك) ..

قالت مستجمعة شتات أعصابها :

ـ د. (ستارك).. أنا واثقة بأن هناك جانبًا إجراميًا فيما يحدث، وأظن أن هناك منظمة ما مثل (المافيا) فى الموضوع ..

ـ ماذا يدعوك لهذا الظن يا (سوزان) ؟

ـ أشياء مفزعة حدثت اليوم .. وكدت ألقى حتفى مرتين ..

ـ هل أنت واثقة بأنها ليست مزحة أو شخصًا موتورًا ؟.. إن هذا يحدث أحيانًا ..

ـ لا .. لقد هددنى بقتل أخى الصغير ..

ـ إذن لِمَ لا تبلغين الشرطة ؟

ـ سيظنون الأمر مجرد محاولة اغتصاب يصادفونها كثيرًا ..

ـ نصحتك مرارًا بنسيان الموضوع يا (سوزان) ..

ـ إن لى مطلبًا هامًا يا د . (ستارك) .. أريد أن تسهل لى زيارة معهد (جافرسون) ، حيث ينقلون حالات الغيبوبة ..

ـ هذا مطلب صعب يا (سوزان) .. فإدارة المعهد خاصة لاحكومية ، وليس لى كثير دلال عليهم .. لكن ليكن .. اتصلى بى فى التاسعة صباح غد ، لنرى ما قد يكون بوسعى فى هذا الصدد ..

شكرته (سوزان) بحرارة ، ووضعت سماعة الهاتف مطمئنة إلى أن لها على الأقل صديقًا واحدًا فى هذا العالم ..

إن أمامها الآن يومين على الأكثر ، قبل أن يعرف من هددوها ، إنها لم ترضخ للتهديد .. وعليها أن تتحرك بسرعة ..

* * *

الأربعاء ٢٥ فبراير الساعة ٧,١٥ بعد الظهر :

على الأقل كان لكل هذا معنى .. أن (سوزان) لم تدر قط أهمية ما وصلت إليه .. هى لم تكن قد وصلت لشىء فى رأيها .. لكن هناك من يهددها ..

وهذا يعنى أن هناك من يدرك أنها فى الطريق الصائب ..

حان وقت الخروج ..

لتتصرف مثلما يفعلون فى أفلام الجاسوسية .. نظرت للنافذة كى تتأكد من أن أحدًا لا يراقبها .. ثم أضاءت الأنوار .. وقامت بحشر ورقة صغيرة فى فتحة باب الغرفة ، بعد أن تأكدت من غلقه بالمفتاح ، ثم هبطت إلى الطابق السفلى ، واستعملت ممرًا صغيرًا ، يستعمله الطلبة أحيانًا للذهاب إلى قسم التشريح .. ومن هناك خرجت إلى الشارع ..

* * *

لم يكن (أنجلو دامبروزيو) ـ السفاح الأجير ـ يعرف لماذا كلف بهذه المهمة فى (بوسطون) .. لكنه فى مهنته يعرف جيدًا أن الأسئلة ليست من حقه .. فهذه المرة مثلًا

كلفوه أن يطير إلى (بوسطون) ، ثم يتوجه إلى ١٨٣٣ شارع (ستيوارت) ؛ ليقتل شخصًا يدعى (والترز) ، بعد أن يرغمه على كتابة ورقة ، تقول إنه انتحر ، لأنه لا يستطيع تحمل تبعات اكتشاف المخدرات فى خزانته ، ثم كان عليه أن يفزع طبيبة اسمها (سوزان هويلر) ، مهددًا بقتل الطفل الذى أعطوه صورته ..

كان سيستقل الطائرة الآن إلى (شيكاغو) ، شاعرًا بالرضا ، كأى محترف أنجز عمله بنجاح .. وفى المطار طلب الرقم الذى يعرفه وأبلغه أن (بوسطون) تمت بنجاح ..

عندئذ ردّ الشخص الذى لم يره (دامبروزيو) قط :

ـ ثمة مهمة أخرى .. مس (هويلر) يجب أن تموت فورًا ..

ـ يحتاج هذا إلى ثمن إضافى ..

ـ خمسمائة دولار إضافية إذن ..

ـ ستمائة ..

ـ اتفقنا ..

وهكذا وجد نفسه مضطرًا للعودة إلى دار (سوزان) .. لم تزل هناك طائرة الساعة ١١,٤٥ هذا المساء .. إن الوقت كاف جدًا لما يريد ..

* * *

لم يكن واثقًا بما إذا كانت (سوزان) قد أبلغت الشرطة عن زيارته الأولى، لكنه كان يعرف بخبرته السابقة، أنهم لن يأخذوا كلامها مأخذ الجد .. وحتى إذا فعلوا، فلن يبدءوا حراستها بشكل جدى بهذه السرعة ..

لم تكن لديه خطة ما، فهو كعادته يترك كل شيء للظروف..

صعد فى السلم، ودقّ الباب مرارًا .. كان يعرف أنها لو كانت بالداخل فلن تفتح الباب، قبل أن تسأل عن الطارق، ولكنه أراد معرفة كونها بالداخل من عدمه ..

ولم يتلق ردًا كما توقع ..

فتح الكالون فى ثوان ودخل ..

فحص خزانة الثياب .. وكان كل شيء فى موضعه، بما فى ذلك حقيبة ثيابها الكبيرة التى رآها فى المرة السابقة ..

لكى تكون قاتلًا مأجورًا ناجحًا فى عمله، ينبغى أن تكون دقيقًا ..

وكان (دامبروزيو) دقيقًا ..

لقد عرف أن (سوزان) لم تغادر المدينة، وهى حتمًا عائدة ..

عليه فقط أن ينتظر ..

* * *

الأربعاء ٢٥ فبراير الساعة ١٠,٤١ مساءً :

كانت (سوزان) قد قامت بمغامرة صغيرة ..

تنكرت فى ثياب ممرضة، وأقنعت حراس الأمن - الأغبياء كالعادة - أن يسمحوا لها بفتح مكتب د. (مكليرى) رئيس قسم الأمراض العصبية، الذى يحتفظ فيه بكل ملفات حالات الغيبوبة ..

وما إن حصلت على الملفات، حتى جلست فى استراحة الجراحين تدرسها في اهتمام ..

وكان (بيلوز) قد أنهى عمله منهكًا، بعد أن انتهى كذلك تحقيق الشرطة حول انتحار (والترز) المزعوم ..

وحين دخل استراحة الجراحين، ووجد (سوزان) بثياب الممرضة، بدأ يفهم ما قامت به من مخاطرة، وبعد أن لامها كالعادة .. سألها عما إذا كانت قد وجدت شيئًا ..

قالت (سوزان):

- لا أدرى حقًا .. لكن كل حالات الغيبوبة من الشباب كلهم كانوا بصحة جيدة .. تباينت أسماء أطباء التخدير والعقاقير التى استعملوها، لكنهم جميعًا - المرضى - أجريت لهم جراحات فى الغرفة رقم (٨) ..

وربما كان هذا لأنها مخصصة للجراحات الصغرى .. ، والغريب أنهم جميعًا .. تم عمل فصيلة دم لهم واختبار توافق نسيجى ..

ـ هذا غريب .. ليس من المعتاد تحديد فصيلة دم المريض فى الجراحات الصغرى .. أما عن توافق الأنسجة ، فلابد أن هناك خطأ ما ..

هل يوجد رقم حسابى على تقرير التوافق ؟

ـ لا ..

ـ إذن المعمل قام بذلك لحسابه الخاص ..

عضت (سوزان) شفتها السفلى مفكرة .. ثم غمغمت :

ـ أعتقد أننى لابد أن أرى غرفة العمليات (٨) هذه .. وكالعادة أدرك (بيلوز) أنه لن يثنيها عن عزمها مهما حاول ..

* * *

اتجهت (سوزان) إلى غرف العمليات ..

ولم يكن فى هذا الوقت ، سوى جراحة تمدد وعائى فى البطن ، فى الغرفة رقم (٢) .. لقد استمرت الجراحة ثمانى ساعات ، مما يدل على خطورتها ..

دخلت (سوزان) ـ بثياب الممرضات ـ غرفة التعقيم ، وارتدت رداء تعقيم ، ثم سارعت بحذر إلى غرفة العمليات

رقم (٨) .. ارتدت الحذاء الخاص المصمم بحيث يمنع الكهرباء الاستاتيكية ، ووقفت تنظر عبر الزجاج إلى داخل الغرفة ..

دخلت وأضاءت النور ، وشرعت تتفحصها .. كان هناك خرطوم له وصلة خضراء كتب عليه (أكسجين) .. وخرطوم له وصلة زرقاء كتب عليها (نيتروز) .. وثمة وصلة ثالثة غير ملونة ، أدركت أنها خط الهـواء المضغوط ..

لا يوجد ما يثير الشك فى كل هذا ..

نظرت إلى السقف ، فوجدته مكونًا من بلاطات كبيرة عازلة للصوت ..

أحضرت كرسيًا صعدت عليه إلى خزانة كبيرة .. ثم مدت يدها تتحسس البلاطة .. كانت تتحرك بسهولة .. مدت جسدها داخل الفتحة ، وشرعت تتأمل حشد المواسير والأنابيب المعقد فى الضوء الخافت ، وبقليل من الجهد رفعت جسدها بالكامل فوق مستوى السقف .. وانتظرت هنيهة ، حتى اعتادت عيناها على الظلام ، ببطء شديد تحركت زاحفة فوق المواسير ، التى كان بعضها ساخنًا جدًا وبعضها باردًا كالثلج ..

من المهم ألا يصدر عنها صوت ما ..

وشرعت تتأمل حشد المواسير والأنابيب المعقد فى الضوء الخافت ..

ها هو ذا خط الأكسجين أخضر اللون، يصعد من الغرفة، ويتخذ مكانه جوار الخطوط القادمة من الغرف الأخرى .. وضعت إصبعها على خط الغرفة (٨) حتى لا تفقده .. وشرعت تتحسسه .. حتى وجدته ينتهى بشىء شبيه بصمام ضغط ..

صمام ضغط غير موجود فى أى خط أكسجين آخر !..

هذا الصمام قادر على إيقاف الأكسجين، أو دمج أى غاز آخر فى الخط ..

لقد وجدت شيئًا هامًا ..

وعليها أن تعود أدراجها الآن، قبل أن يراها أحد ..



الخميس ٢٦ فبراير الساعة الواحدة صباحًا :

دفعت (سوزان) أجر التاكسى ومشت نحو باب مسكنها .. ستقوم فى الصباح بالمزيد من البحث .. خاصة موضوع انتحار (والترز) ، الذى تعرف أن له علاقة مَا بما تبحث عنه .. ولكن كيف ؟..

صعدت الطوابق الأربعة ، وهى تتوقف من حين لآخر ، لاهثة من فرط الإنهاك الجسدى والمعنوى ..

ثم إنها مدّت المفتاح وأولجته فى (كالون) الباب ... و..

لحظة من فضلك !..

كانت قد وضعت قصاصة من الورق فى فتحة الباب قبل خروجها ..

والآن لم تعد القصاصة هناك .. هناك من فتح الباب إذن .. وهو الآن ينتظرها بالداخل .. بالتأكيد سمع خطواتها ، وهو الآن متحفز للانقضاض عليها متى دخلت !

هل تفرّ الآن ؟.. هل تبلغ البوليس ؟.. لن يصدقوها .. سيعتقدون أنها مجرد محاولة اغتصاب أو سرقة ..

تقدمت نحو الباب وأمعنت التفكير .. يمكنها أن تنزل لأى من الجيران ، لتقول إنها لا تستطيع فتح بابها ، وتطلب قضاء الليل عنده ..

بدأت تهبط درجات السلم .. لكن صوت الخطوات كان عاليًا .. عاليًا ، إلى درجة أن الرجل سمعه بالتأكيد ..

وعند الطابق الثالث سمعت صوت بابها ينفتح ، وصوت خطوات مسرعة تلاحقها !.. كلا .. لا وقت لديها لدقّ باب أحد الجيران .. يجب أن تركض .. ستحاول تضليله بين مبانى المدينة الجامعية ..

شرعت تجرى .. ووجدت أمامها مبنى قسم (الباثولوجى) و (التشريح) ..

صوت الخطوات يلاحقها دون كلل ..

بلهفة فتحت باب الطابق الأول .. وهرعت إلى داخل المدرج الخاوى ..

وهنا وجدته يدلف من الباب خلفها .. وإذا به يمدّ يده إلى مفتاح النور .. كانت واقفة هناك فى نهاية المدرج كفأر فى مصيدة ..

هو ذا يدنو منها بتؤدة .. وجهه المجدور .. وابتسامة وحشية على وجهه :

ـ أنا أعشق الفتاة التى تقاومنى !

قالها وهو مستمر فى الاقتراب .. كانت جوارها أسطوانة إطفاء حريق .. رفعتها فى يدها ، وحين اقترب ، أفرغت فى وجهه سيلًا من المادة السائلة ، ثم قذفته فى صدره بالأسطوانة فسقط أرضًا ..

هرعت (سوزان) جارية نحو الثلاجة الكبيرة فى غرفة التشريح ..

أما (دامبروزيو) فقد استبد به الألم فى صدره .. لكنه كان ألمًا بلا إصابة .. الأهم من الألم هو الغضب المحموم المجنون .. كيف راوغته هذه الفتاة بتلك البساطة ؟.. أخرج مسدسه الكاتم للصوت .. وهرع خلفها ..

شقت (سوزان) طريقها بين مناضد التشريح التى ترقد فوقها الجثث المغطاة بالمشمع الأخضر ، إلى باب الثلاجة العملاقة .. وفتحت القفل العملاق ..

ثم دخلت وأغلقت الباب وراءها وتحسست الحائط حتى وجدت مفتاح النور فأضاءته ..

كانت الجثث المحنطة معلقة فى مشاجب على عواميد أفقية ، كما تعلق الثياب فى الخزانة .. أجساد متيبسة مشوهة .. والوجوه متجمدة ، بعضها مغلق العينين ، وبعضها يحملق فى لا نهائية مريعة ..

وتذكرت (سوزان) خوفها القديم من هذه الغرفة .. الخوف الذى لا مكان له الآن ..

ليس أمامها إلا بضع دقائق ويدخل الرجل الثلاجة خلفها ..

أغلق (دامبروزيو) الباب خلفه احتياطيًا .. ثم سار بين مناضد التشريح .. واتجه نحو أول منضدة وانتزع الغطاء الأخضر من عليها ..

وشهق للحظة ، وهو يتأمل الرأس المشوه ، الذى نزع عنه الجلد .. والشعر المقلوب للوراء .. ومقدمة الصدر المنتزعة من مكانها ..

ثم أعاد الغطاء .. وعاد يكشف الأغطية عن المناضد الأخرى ؛ لأنه لم يكن واثقًا من أن (سوزان) لم تنم فوق واحدة منها .. حاول قدر إمكانه ألا يمعن النظر فى الوجوه المريعة ..

ثم سار إلى نهاية القاعة .. إلى الثلاجة .. عادت إلى وجهه الابتسامة الشيطانية وفتح بابها ..

كانت الجثث المعلقة تبدو كجيش من الغيلان الرهيبة ينتظره .. وأحس بالبرد .. قال وهو يدلف من الباب :

ـ أنا أعرف أنك هنا يا امرأة .. لم لا تأتين لنتحدث ؟

وفى تؤدة سار بين صفوف الجثث ..

كانت يدا (سوزان) تتخليان عن العمود الذى تعلقت فيه بين الجثث ، فى الصف الثانى .. لكنها تماسكت ..

أدركت أن (دامبروزيو) ، يقف عند بداية الصف الذى تتعلق هى فيه .. وأدركت أن هذه فرصتها الأخيرة .. إما الآن أو أبدًا ..

بكل عنف استطاعته ثنت فخذيها لأعلى، ثم ركلت ظهر جثة المرأة التى كانت معلقة أمامها .. فى الحال انزلق صف الجثث إلى الأمام ..

تصلب القاتل محاولًا فهم مصدر الصوت .. تراجع كالنمر، لكنه كان أبطأ من اللازم .. رأى طابور الجثث الهاجم عليه، فرفع مسدسه لاشعوريًا وأطلق بضع طلقات، لكن مهاجميه كانوا ميتين بالفعل ..

ومن الطرف الحرّ للعمود هوى على (دامبروزيو) جسد رجل شاحب، على وجهه تعبير مريع .. ووزنه نحو مائتى رطل من اللحم المتجمد كالصخر ..

وعندئذ توالى شلال الجثث المتجمدة فوق الرجل ..

هرعت (سوزان) جارية نحو باب الثلاجة ..

حاول (دامبروزيو) الإمساك بكعبها .. بل وأطلق عليها الرصاص، لكن ثقل الأجساد الهائل فوقه، جعله غير قادر على التملّص ..

وخارج الباب دفعته بأقصى قوة لينغلق .. وأحكمت تأمينه بالقفل .. وسمعت صوت المسدس ينطلق بالداخل، لكن سمك الباب كان ثمانية بوصات ..

دامعة العينين مرتجفة ركضت بعيدًا .. بعيدًا عن هذا الكابوس ..

★ ★ ★

الخميس ٢٦ فبراير الساعة ٢,١١ صباحًا :

لن تعود إلى المسكن .. فمن أدراها أن مطاردها لم يكن له شريك، ينتظرها هناك الآن أو يطاردها ؟

ستذهب إذن إلى منزل (بيلوز) وتختفى هناك ..

ولكن .. لماذا عاد القاتل ليطاردها بهذه السرعة، ولم ينتظر حتى يرى أثر تهديده ؟.. (بيلوز) .. هو الوحيد الذى عرف أنها مصممة على مواصلة البحث، ورأى الملفات معها .. مستحيل .. لكن لا .. (بيلوز) له علاقة بقصة العقاقير .. وهو من اكتشف جثة (والترز) ..

هل تقدم أم لا ؟.. هى غير قادرة على اتخاذ قرار ..

رنت الجرس فى إصرار وعصبية، حتى سمعت صوته خلف الباب، وفتح لها مرتديًا روب الحمام، فأصابه الذهول لقدومها إلى شقته ..

كانت تشعر بحاجتها إلى الصراخ والعويل بين ذراعيه .. الثلاجة المجمدة، (دامبروزيو) .. كل هذا التوتر ..

لكن (بيلوز) تمدد فى فراشه وأغمض عينيه لينام ..

فقالت حانقة :

- لم أتوقع منك كل هذه الضيافة !
- ليس فى الثانية صباحًا .. إن لدى عملًا كثيرًا غدًا ..
- هوجمت من جديد .. نفس الرجل فى المشرحة ..

لم يبد مهتمًا .. بل إنه نصحها من جديد بإبلاغ الشرطة ..

قالت له إنها وجدت صمامًا على خط الأكسجين ، الخاص بغرفة العمليات رقم (٨) ، فلم يلق بالًا لما قالت ..

- أنا واثقة بأن هناك غازًا يضخ ، عن طريق هذا الصمام .. غازًا يصيب بالغيبوبة ولا يغير لون الدماء .. غازًا يؤدى لموات الدماغ .. وإننى أرشح أول أوكسيد الكربون ليكون هذا الغاز ..
- وهل سألتِ نفسك عن المبرر ، الذى يدفع أحدًا لخلط هذا الغاز بالأكسجين ، الذى يتنفسه المرضى ؟
- لا أدرى .. لكنى أعتقد أن هناك منظمة إجرامية معينة ، مسئولة عن كل هذا ..
- أنت تخرفين يا (سوزان) ..

نهضت دون كلمة واحدة ، مغادرة الحجرة .. ودفعت الباب بشدة خلفها .. لم يكن (بيلوز) ذا عون لها قط .. ولن يكون ..

★ ★ ★

الخميس ٢٦ فبراير الساعة ١,٤١ صباحًا :

صحت (سوزان) فى غرفتها رقم (٧٣١) ، فى الفندق الصغير ، الذى لجأت إليه فرارًا من مطارديها .. صحت من حلم رهيب ، رأت نفسها فيه تجرى فى دغل من الأحراش المتشابكة ، تخدش ذراعيها وساقيها وهى لا تجد لنفسها فرارًا ..

تأملت (سوزان) الغرفة متواضعة الأثاث .. لا يهم .. المهم أنها آمنة ، وأنها سمحت لها بأن تغمض عينيها فى سلام ..

نهضت إلى سماعة الهاتف ، وطلبت د. (ستارك) ، فجاءها صوته المهتم :

- (سوزان) .. كنت قلقًا عليك بعد حادث الأمس .. هل أنت بخير ؟
- عندى مغص شديد ، فلن أستطيع المجىء للمستشفى اليوم ..
- عندى لك أخبار سيئة ، وأخرى طيبة ..
- إلىّ بالسيئة أولًا ..
- حسن .. السيئة هى أنك - بناء على اتصالات مع

عميد الكلية ـ تم نقلك إلى مستشفى (فى ـ إيه) التعليمى .. برغم محاولاتى ، كان الجميع مصرين ، ولم أجد مفرًا .. على كل حال ليس مستشفى سيئًا ..

ـ للأسف إن مستواه التعليمى أقل من (بوسطون التذكارى) ..

ـ الأنباء الطيبة ، هى أن مدير معهد (جافرسون) ، وافق على أن تزوريه ، بشرط أن تكونى وحدك .. وأن يكون ذلك بعد الخامسة مساءً .. مفهوم ؟

ـ شكرًا جزيلًا .. هناك شىء آخر يا سيدى .. لقد وجدت صمامًا مركبًا على خط (الأكسجين) الداخل إلى الحجرة (٨) ، فى قسم العمليات ، ومكانه قرب الماسورة الأم ..

ـ (سوزان) .. أنت غير معقولة !.. كيف استطعت ؟

ـ صعدت فوق سقف الحجرة ، ودرست خطوط الغاز ..

ـ إن هذا أكثر من اللازم !

توقعت أن ينفجر فيها كالآخرين .. إلا أن ذلك لم يحدث ..

بعد هنيهة سمعت صوته يقول بهدوء :

ـ حسن .. أعتقد أن لدىّ تفسيرًا .. فهذه الحجرة

أنشئت تحت إشرافى .. وأعتقد أن هذا الصمام خاص بإخراج فقاعات الغاز ، لكنى سأرسل من يقوم بفحصه للتأكد ..

★ ★ ★

فى ذلك الوقت كان (بيلوز) قد فرغ من جراحة الاستئصال المعوى ، فألقى بقفازيه فى سلة المهملات ..

لم يستمتع بإجراء هذه الجراحة ـ وهو يحبها حقًا ـ لأنه كان يشعر بالندم على تركه (سوزان) تغادر بيته غاضبة وحيدة ، فى تلك الساعة المتأخرة .. لكنه كان يدرك أنه على حق فى تعليقاته وفى رأيه ..

إن ميله الشديد نحو (سوزان) ، يجب أن يُزاح جانبًا ، إذا كان سيعرض حياته المهنية للخطر ..

وعلى باب غرفة الطوارئ ، قابل د . (جونستون) الذى حيّاه .. ثم قال له فى مرح :

ـ هل سمعت عما حدث فى كلية الطب صباح اليوم ؟.. لقد دخل شخص مخبول مبنى المشرحة أمس ، وعرّى كل الجثث .. ثم أطلق الرصاص على بعضها ، وحبس نفسه فى الثلاجة وأطلق مزيدًا من الطلقات .. هى هى هى !

نظر (بيلوز) إلى (جونستون) شارد الذهن .. (سوزان) تحدثت أمس عن اعتداء تم فى المشرحة .. هل هو نفس الرجل ؟.. ما هو موضوع الثلاجة ؟

ـ وهل مات متجمدًا ؟

ـ لا .. أصيب بغيبوبة نقص حرارة ، وحتمًا سيفقد ساقيه ..

وما أثار اهتمام الشرطة حين وجدته ، هو أن بطاقته مزورة ..

لقد ناداني طلبة الطب لأنقذ لهم رجلهم ..

لماذا لم تذكر (سوزان) كل هذا ؟.. هل هى التى حبسته إذن ؟

حيرة شديدة انتابته ..

فصمم على أن يتصل بها ليعرف ..

★ ★ ★

الخميس ٢٦ فبراير الساعة ٤,٢٣ بعد الظهر :

ركبت (سوزان) سيارة تاكسى إلى معهد (جافرسون)، الواقع جنوبى (بوسطون) ١٨٠٠ شارع (واى ماوث) ..

منطقة منعزلة تمامًا ، بلا أثر للحياة .. الضوء الوحيد فى الشارع ، كان من عمود إنارة ، يلقى ضوءه الخافت على لافتة كتب عليها :

(معهد جافرسون ـ إدارة التعليم والصحة ـ الحكومة الأمريكية ١٩٧٤) ..

وكما قال (بيلوز) ، لم تكن ثمة نوافذ فى الطابق الأول كله .. أما الثانى ، فكانت له نوافذ غائرة ، لا يمكن رؤية ما بداخلها ، وتصميم المبنى كله ، يشبه الأهرام المدرجة الفرعونية (المصاطب) ..

سارت إلى الباب البرونزى ، فسمعت صوتًا مسجلًا ، يطلب منها أن تعطى اسمها وغرض زيارتها .. ففعلت .. ظهر نور أحمر على شاشة مضيئة جانبية يقول: انتظر ..

ثم بعد ثوان تغير إلى أخضر يقول : تقدم ..

وانفتح الباب ببطء أوتوماتيكيًا ، لتجد (سوزان) نفسها

فى صالة واسعة بيضاء ، بلا نوافذ ولا صور .. وأدركت ـ فى دهشة ـ أن الإضاءة تنبعث من الأرضية البلاستيكية البيضاء ..

وهنا انفتح باب جانبى ، برزت منه امرأة ترتدى ثوبًا أبيض ناصعًا وعيناها عميقتان خاليتان من الحياة :

ـ مرحبًا بك فى معهد (جافرسون) .. اسمى (ميشيل) ، وعلىّ أن أصحبك فى الزيارة .. ولكن أقترح أن تتركى معطفك هنا ، وكذا حقيبتك .. إن المكان دافئ بالداخل ..

امتثلت (سوزان) على حين استطردت المرأة :

ـ أنت تعرفين أن معهدنا هو مستشفى للعناية المركزة .. بمعنى أننا لا نقبل إلا مستويات متعددة من الغيبوبة .. وقد نجحنا فى تقليل الطلب على الأسرة فى المستشفيات العامة ، التى يشغل فيها مرضى الغيبوبة مساحة ما .. وحاليًا يتم إنشاء معاهد مماثلة فى كل مدينة ، يفوق تعدادها مليون نسمة !

ونهضت مصطحبة (سوزان) عبر دهليز طويل ، ملىء بالمرايا والأبواب الجانبية .. وفى نهاية الممر دخلتا إلى حجرة كبيرة تشبه العناية المركزة فى أى مستشفى .. بها خمس أسرة .. أحدها يرقد فيه مريض موضوع على جهاز تنفس صناعى ..

قالت (ميشيل) :

ـ هنا يرى الزائرون المرضى فى ميعاد الزيارة .. هذا المريض كان أهله يزورونه ، فحاولنا أن نجنبهم ردّ الفعل الانفعالى العاطفى ، الذى ينتاب كل من يرى أسلوبنا فى العلاج .. والآن تعالى نر العناية المركزة الحقيقية هنا ..

وخلفها دلفت (سوزان) إلى قاعة يغمرها ضوء غريب .. ثم رأت المرضى فتصلبت ذاهلة .. إن هذا لا يصدّق ..

كان بالقاعة أكثر من مائة مريض ، كلهم معلق فى الهواء على ارتفاع أربعة أقدام .. ، وكلهم عار من الثياب .. وحين دققت النظر أكثر ، استطاعت أن ترى الأسلاك التى تخترق عظامهم وجماجمهم ، وتتدلى من إطارات معلقة .. كأنهم دمى (ماريونيت) أفقية ..

ـ كما ترين .. كثيرون من الزوار لا يتحملون هذا المشهد ، لكنها أفضل وسيلة عرفت لمنع حدوث قرح الفراش ..

ـ والضوء ؟

ـ آه .. الضوء .. إنها أشعة فوق بنفسجية ، تتحكم فى الباكتريا .. ومن يظل هنا فترة ، عليه ارتداء العوينات الواقية .. ودرجة الرطوبة هنا هى ٨٢ ٪ مما يقلل من فقد



وحين دققت النظر أكثر ، استطاعت أن ترى الأسلاك التى تخترق عظامهم وجماجمهم ..

جسد المريض للحرارة ، ويقلل فرص التلوث للجهاز التنفسى ..

دنت (سوزان) من المسرح فى وجل .. وتساءلت :

ـ لا توجد ممرضات ؟

ـ ثلاث ممرضات وطبيب واحد .. عدد كاف جدًا لخدمة مائة وواحد وثلاثين مريضًا .. فكل شىء آلى يتحكم فيه الكمبيوتر مباشرة ، بالقياس واتخاذ القرار فالتنفيذ !

شعرت (سوزان) بالتوتر .. وأدركت أن هـذه الممرضة ، هى كمبيوتر آخر بلا مشاعر .. ولا تساؤلات ..

وهنا تذكرت (سوزان) أن معهد (جافرسون) به عدة غرف عمليات ، رأتها فى الخريطة التى درستها ..

من ثم سألت (ميشيل) :

ـ كم غرفة عمليات هنا ؟

ـ ليست لدينا غرف عمليات .. إذا احتاج مريض لجراحة ما ، فإننا نعيده إلى المستشفى الذى جاء منه ..

كانت هذه هى الإجابة الخطأ .. لكنها جاءت أسرع من اللازم .. وفى سرّها أدركت (سوزان) أن المرأة كاذبة .. ولكن لماذا ؟

وهنا مال المريض الذى أمام (سوزان) إلى الوراء ، بحيث انخفض مستوى رأسه ستّ بوصات عن قدميه .. فقالت (ميشيل) :

ـ هذا مثال جيد .. لقد أحس الكمبيوتر بانخفاض ضغط دم المريض فحركه بالأسلاك إلى هذا الوضع ، قبل أن يبدأ البحث عن سبب هذا الانخفاض ..

قالت (سوزان) :

ـ أنا أبحث عن مريض يُدعى (شون بيرمان) .. فهلا ساعدتنى ؟

ـ حتمًا .. سأستعمل الكمبيوتر لأجد رقمه .. انتظرى هنا ، ولكن لاتلمسى أى سلك أو مريض .. فالنظام هنا متوازن بالكامل ، وسيشعر الكمبيوتر بكهرباء جسدك ، ويدق جرس الإنذار ..

ثم تركتها واقفة ، ودخلت غرفة المراقبة الشبيهة بالغواصة النووية من الداخل ..

كان هناك حارس يلبس زيًا أبيض ، ويتمنطق بمسدس وجهاز لاسلكى .. تساءل فى شك :

ـ هل من الحكمة تركها وحيدة ؟..

ـ التعليمات تقضى بتركها ترى ما تريد ..

وبدأت تضرب أزرار الكمبيوتر باحثة عن اسم (بيرمان) ..

وعلى الشاشة ظهرت البيانات :

(شون بيرمان) .. ذكر .. ٣٣ سنة ـ موت مخ بعد التخدير ـ الرقم ٣٢٣ ـ ب ٤

كان الحارس يرمق شاشات المراقبة فى اهتمام .. وفجأة اعتدل فى مكانه .. إن (سوزان) لم تكن واقفة فى العنبر الرئيسى ..

ثم تتالت البيانات على الشاشة :

توفى ـ فبراير ٢٦ ـ الساعة ٣,١٠ .. بسكتة قلبية ..

ـ لقد تأخرت ساعة كاملة على (بيرمان) هذا ..

قال الحارس فى قلق :

ـ هى ليست فى حجرة الاستقبال ولا الممر ..

قالت (ميشيل) فى هدوء :

ـ اهدأ .. سنجدها .. أعتقد أنه من الحكمة الخلاص من هذه الفتاة ..

* * *

الخميس ٢٦ فبراير الساعة ٥,٢٠ بعد الظهر :

مشت (سوزان) فى اتجاه المشرحة ، مهتدية بالتصميم الذى أخذته من مجلس المدينة لمعهد (جافرسون) .. ، وفى نهاية الممر وجدت بابًا موصدًا .. ففتحته بهدوء ..

ثمة منضدة من الصلب عليها جثة رجل عار .. وسمعت ضحكة عالية وصوتًا يقول :

ـ ما هو وزن القلب ؟

ـ هذا دورك لتخمن ..

استطاعت (سوزان) أن ترى وجه الجثة .. لقد كانت جثة (بيرمان) !..

أعادت غلق الباب .. وشرعت تتنفس بعمق كى تتمالك أعصابها .. ليس لديها وقت تضيعه الآن .. إلى المصعد ..

انتظرت حتى مسحت عدسة الدائرة التليفزيونية المغلقة مكان المصعد ، ثم هرعت لتركبه .. ضغطت على زر الطابق الثانى .. إن الرسوم تشير إلى أن غرف العمليات عند طرف المبنى يقود إليها الباب الثامن والتاسع ..

وفى حذر مشت فى الممر حتى وصلت إلى الباب التاسع ، ففتحته ودخلت .. كانت هناك غرفة ثياب ومنضدة عليها منفضة بها لفافة تبغ يتصاعد منها الدخان .. وسمعت من الحمام صوت انهمار المياه ..

★ ★ ★

ـ مستحيل .. هل تبخرت هذه الفتاة ؟

ـ ربما صعدت للطابق الثانى ؟

ـ ستكون كارثة .. سأقوم بكهربة السور الخارجى ، وتشغيل جميع الأقفال الأوتوماتيكية .. ولتتصلى أنت بالإدارة فورًا ..

★ ★ ★

سارت (سوزان) متلصصة إلى باب غرفة العمليات الموصد ..

قربت أنفها بحذر من الزجاج ..

رأت اثنين من الجراحين يقومان بجراحة ما .. لكن لماذا لا ترى منضدة عمليات ؟.. لماذا لايوجد طبيب تخدير ؟.. لماذا علق المريض كالذبيحة فى إطار عملاق ، وشق كبير فى بطنه ، يقوم أحد الجراحين بغلقه ؟.. سمعت صوتًا يتساءل :

ـ أين سيرسلون قلب المريض السابق ؟

ردّ صاحبه وهو يحكم غلق إحدى الغرز :

ـ (سان فرانسيسكو) .. إن ثمنه قد وصل خمسة وسبعين ألف دولار .. وهو ثمن تافه .. لكنهم أخذوا الكلية بمائتى ألف دولار ..

ـ إن صبى (دالاس) ينتظر .. ، والده يعمل فى البترول ، وقد وعد بدفع مليون دولار .. تصور هذا !

أخذ عقل (سوزان) يعمل سريعًا .. تفحصت الغرفة فى قلق ، وقد بدأت تتبين الآنية الزجاجية الموضوعة على منضدة .. آنية تشبه أحواض الأسماك ، مزودة بآلات تعمل ذاتيًا مثبتة على كل حوض .. رأت فى واحدة منها قلبًا بشريًا ، يرتجف سابحًا فى محلول .. وفى أخرى كلية بشرية ..

لقد اتضحت معالم الكابوس .. الدافع .. الدافع المرعب لكل هذا ..

إن معهد (جافرسون) ، هو ورشة عملاقة ، لإمداد السوق السوداء بحاجتها من الأعضاء البشرية !..

يجب أن تهرب .. يجب .. ولأول مرة أدركت استحالة ذلك .. إن هذا المستشفى يديره سفاحون ، فكيف تخرج منها ؟

وهنا ـ حيث وقفت فى الغرفة المظلمة ـ سمعت صوت

جرس الإنذار يدوى .. وسمعت صوتًا عاليًا يتردد من مكبرات الصوت :

ـ هناك امرأة دخيلة فى المبنى .. أكرر .. هناك امرأة دخيلة فى المبنى .. يجب القبض عليها فورًا !

★ ★ ★

التقطت (سوزان) مقصًا كبيرًا من فوق المنضدة ، وهرعت إلى الدهليز الرئيسى نحو باب المصعد ..

وهنا فوجئت بالمصعد يتوقف ويخرج منه حارس ..

فوجئت بالرجل ، وفوجئ هو بها .. ثم إنه قال بعد أن عاد لرشده :

ـ حسن يا آنسة .. إنهم .....

تراجعت (سوزان) للوراء ، دون أن تسمع باقى العبارة .. جرت نحو قسم العمليات وهو خلفها .. فتحت بابًا فالآخر ، ثم دخلت ..

لكن الرجل وضع قدمه فى الفتحة .. حاولت أن تدفع دون جدوى .. أمسكت المقص كالخنجر وأغمدته فى ظهر يده ، فصاح فى هلع .. وتراجع ..

عندئذ أغلقت الباب خلفها ..

أطلق الرجل سبة ، وبيد ملطخة بالدماء حاول فتح الباب مرة .. مرتين بمفاتيح كانت معه .. ثم نجح فى المرة

الثالثة ، فاقتحم الحجرة ، ليجد أن (سوزان) غير موجودة .. النافذة مفتوحة ، يدخل منها هواء (فبراير) البارد .. جرى هناك ليتفحص الإفريز الخارجى ، ثم أمسك باللاسلكى ليقول :

ـ الفتاة فى الطابق الثانى .. فرت من النافذة إلى الإفريز الخارجى .. لا أستطيع رؤيتها ، فهو يدور حول ركن المبنى .. هل أطلقتم كلاب (الدوبرمان) ؟.. حسن !.. سأرى الإفريز من الجهة الأخرى ..

قالها ، وأعاد الجهاز إلى حزامه ..

وأحكم غلق النافذة ..

* * *

الخميس ٢٦ فبراير الساعة ٥,٤٧ بعد الظهر :

لم تكن (سوزان) قد غادرت الحجرة .. فقد علمتها تجربتها مع غرفة العمليات رقم (٨) ، أن هناك فراغًا فوق الأسقف المعلقة ، ولهذا تمكنت من التسلق لأعلى السقف ، لتتمدد فوق البلاطة الفينيل الثقيلة ، على ارتفاع ستة أقدام ، فوق رأس الحارس أسفلها ..

وبهذه الحيلة استطاعت أن تقنعه بأنها ليست بالمبنى أصلًا ..

تنهدت الصعداء ، وبدأت تزحف فوق السقف بين المواسير ، وهى تتفحص الرسوم التخطيطية التى فى حوزتها .. كانت هناك غرفة تسمى غرفة النقل .. إنها أملها الأخير .. لأنها تعرف أن هناك من سينقل الأعضاء البشرية ، التى رأتها ليتم زرعها حالًا ..

شرعت تزحف مستهدية بالضوء القادم من تحتها ، متجنبة المواسير المختلفة فى طريقها ، والتى كان بعضها حارقًا ..

أخيرًا !.. لابد أن هذه هى غرفة النقل .. حركت البلاطة تحتها ، لترى رجلًا جالسًا فى الغرفة تحتها ، يملأ طلبًا

مطبوعًا .. وجواره على الأرض صندوقان كبيران ، كتب عليهما بخط كبير (أعضاء للزرع ـ هذا الجانب لأعلى) ..

كانت هناك سيارة !.. وكان محركها يهدر استعدادًا للرحيل .. ورأت الرجل يحمل الصناديق إلى السيارة .. استجمعت قواها وانتزعت البلاطة .. لم يكن ذلك سهلًا .... ثم إنها وثبت بأقصى ما استطاعت فوق ظهر السيارة .. فضاع صوت ارتطامها مع صوت هدير المحرك ، وصوت باب الجراج إذ ينفتح ..

وعلى بطنها تمددت محاولة ألا تنزلق ، لكن ظهر السيارة المعدنى الأملس لم يكن ملائمًا للتشبث ..

اندفع السائق يسارًا فمال جسد (سوزان) إلى الأمام .. تولاها الهلع ، فزحفت نحو سقف الكابينة ، وأنشبت أظفارها فى طرف فتحة تهوية .. اللعبة !.. مطب !.. تطاير جسدها فى الهواء ثم عاد يرتطم بسقف السيارة ..

رفعت عينيها لترى ما حولها ، فأدركت أن هذا هو طريق المطار ..

كان المرور مزدحمًا ، وتوقف السائق لحظة .. وهنا استجمعت قواها ، وانزلقت جواره إلى الأرض ..

رآها السائق من النافذة ، فلم يصدق عينيه ..

فتح الباب ليلحق بها ، لكنها جرت بين طابور السيارات الواقفة ..

كاد يطاردها لكن حشد أبواق السيارات تعالى متذمرًا ، بعد ما تبدل لون الإشارة ..

فأغلق بابه ..

وصمم على ألا يخبر أحدًا بروايته ..

لأنهم لن يصدقوها .. على كل حال ..

* * *

الخميس ٢٦ فبراير الساعة ٨,١٠ بعد الظهر :

مسكينة (سوزان) !.. تركض بثوب التمريض المتسخ الممزق فى صقيع الليل ، باحثة عن جهاز هاتف .. تتسول قطعة عملة من المارة ، بعد ما تركت حقيبتها فى المعهد المشئوم ..

لكن المارة كانوا يبتعدون فى اشمئزاز عنها ، لأنها بدت معتوهة .. وأخيرًا ناولها أحد الرجال قطعة عملة ، وهو ينأى عنها فى شك ، فأخذتها وهرعت إلى مطعم قريب .. فدخلت كابينة الهاتف ، وطلبت د . (ستارك) فى مستشفى (بوسطون) التذكارى .. بعد ثوان سمعت صوته ..

ـ د . (ستارك) .. إن لدىّ الآن القصة كاملة .. شىء لا يصدق ..

ـ عم تتكلمين يا (سوزان) ؟

ـ مرضى الغيبوبة .. ليست مضاعفات تحدث بالصدفة .. معهد (جافرسون) يقوم بتسويق الأعضاء البشرية فى السوق السوداء .. يتلقون الطلبات حول نوع الأنسجة .. ثم يبدءون البحث فى المستشفيات ، حتى يجدوا المرضى المناسبين ، المنتظرين لإجراء جراحة .. وبعدها

يجعلون المريض يتنفس أول أوكسيد الكربون فى أثناء الجراحة ، ويدخل فى غيبوبة وفاة الدماغ .. يصبح جثة حية جاهزة ، كى ينتزع جزارو المعهد أحشاءها ، ويبيعوها ..

كان الجالسون فى المطعم يرمقونها فى فضول .. فأحست بالحرج ، وأدارت ظهرها كى لا تراهم ..

وسمعت (ستارك) يصيح فى دهشة :

ـ (سوزان) .. هذا كلام خطير .. هل يمكنك إثباته ؟

ـ للأسف لا .. لابد من شخص ذى نفوذ ، يتفق مع الشرطة على عمل هجوم مفاجئ على المعهد ..

ـ ليكن ولكن لابد من أن أراك حالًا يا (سوزان) .. هلا جئت إلى مكتبى الآن ؟ أم آتى أنا لاصطحابك ..

ـ سآتى أنا لك ..

★ ★ ★

وضع د . (ستارك) سماعة الهاتف ، وجلس برهة صامتًا دون حراك ..

ثم إنه مدّ يده إلى هاتف آخر ..

هاتف من النوع الذى لا يمكن التجسس عليه ..

وطلب معهد (جافرسون) ..

★ ★ ★

الخميس ٢٦ فبراير الساعة ٨,٤٧ بعد الظهر :

اندفعت (سوزان) جارية من سيارة التاكسى ، دون أن تدفع للسائق مالًا .. لم يكن معها مال ، ولم تكن تنوى الانتظار حتى تشرح له ، جرى الرجل خلفها محنقًا ، فأوقفه حارس الأمن على باب المستشفى ..

أما هى فشرعت تجدّ السير فى طرقات المكان .. وركبت المصعد ، وهنا فوجئت بأحد الحراس يوقفها ..

ـ لحظة يا آنسة .. نريد كلمة معك ..

لم تدر ما تفعله فتوقفت حائرة ..

ـ هل أنت متعجلة حقًا إلى درجة عدم دفع نقود التاكسى ؟

كان مظهرها يؤكد بالفعل أن هناك كارثة ..

قالت له :

ـ سجل اسمه واسم شركته ، وسأدفع فيما بعد .. أنا (سوزان هويلر) طالبة الصف الثالث .. وليس لدىّ وقت الآن .. إن د . (ستارك) ينتظرنى ، ويمكنك أن تطلبه إذا شككت فى كلامى ..

ـ حسن .. ولكن أرجو أن تمرى على مكتب الأمن بعد أن تنتهى ..

وركبت (سوزان) المصعد إلى الطابق العاشر ..

لم تكن هناك سكرتيرة .. فقط د . (ستارك) فى مكتبه المظلم .. إلا من ضوء الأباجورة .. حيّاها بحرارة ودعاها للجلوس ..

ـ إن مظهرك يبدو كأنك شاركتِ فى الحرب العالمية الأولى .. سأقدم لك بعض الشراب ..

كانت متداعية عقلانيًا وجسمانيًا وعاطفيًا .. لم تردّ عليه بل جلست تلهث ..

نهض إلى البار الصغير فى المكتبة ، وملأ كأسين ناولها إحداهما .. ثم قال :

ـ أنت يا (سوزان) فتاة غير عادية .. هل أصبتِ ؟

هزّت رأسها أن لا .. وجرعت من كأسها جرعة كبيرة ..

ـ هل تكلمتِ مع أحد عما رأيته ؟

ـ لا ..

قالتها شاعرة بالخدر يسرى فى جسدها وأوصالها .. نعم هى مرهقة للغاية .. عليها ألا تفكر فى (دامبروزيو) ووجهه المجدور .. جميل هو الشعور بالدفء بعد أن تجمدت أوصالها ..

سألها د . (ستارك) فى رصانة :

ـ كيف عرفت كل هذا ؟

- كانت لدىَّ رسوم المعهد .. حصلت عليها من مجلس المدينة ، وكانت بها غرف عمليات .. لكن الممرضة هناك قالت لى إنه ليست عندهم واحدة .. أثار هذا شكى ودرست المكان ، فوجدتهم يشقون جسد مريض غيبوبة ، ليبيعوا قلبه وكليتيه بأغلى الأثمان :

وتثاءبت .. إنها تشعر بتعب شديد حقًا :

- كل هذا مثير يا (سوزان) .. إن لديك بعد نظر ومثابرة وذكاء لاشك فى ذلك .. لكن هل سألتِ نفسك عن السبب وراء هذه العمليةِ العجيبة ، التى كشفتِ عنها بمهارة فائقة .. أعنى سببًا غير المال ؟

- إنها طريقة للخلاص من الأشخاص غير المرغوب فيهم ..

- كلَّا .. أعنى فائدة أكثر عمومية للمجتمع ..

كانت عيناها تنغلقان أكثر .. فائدة ؟.. عم يتحدث هذا الرجل ؟

- د . (ستارك) .. أنا لا أظن أن .....

- هيا يا (سوزان) .. لقد بذلتِ جهدًا رائعًا .. حاولى أن تفكرى !..

- لا .. لا أدرى :

- لقد حسبت أنك من القلة القادرين على رؤية الجانب الآخر :

- أى .. جانب آخر ؟

لقد كانت تقاتل كى تبقى عيناها مفتوحتين .. الخدر يزحف لذراعيها ..

نهض (ستارك) ومشى نحو النافذة الزجاجية الكبيرة ، التى تطل على المستشفى العملاق ، الذى كافح لبنائه كل هذه الأعوام ..

- (سوزان) إن الطب قد صار على باب أعظم اكتشافاته ، منذ عرف التخدير والمضادات الحيوية .. لسوف نتمكن من زرع كافة الأعضاء البشرية .. لكن هذا لن يجىء دون تضحيات .. ليس بدون ثمن ..

لقد كان (ليوناردو دافنشى) على استعداد لتخطى بعض الحواجز القانونية ، من أجل النجاح .. ماذا لو أنه لم ينبش القبور ليشرح الجثث ؟..

ماذا لو أن (كوبرنيكوس) خضع لقوانين الكنيسة الجامدة ؟.. أين كنا سنصير اليوم ؟!.. هل تفهمين ما أقول ؟

حاولت (سوزان) رفع يدها لكنها لم تستطع .. هوى الكأس على الأرض متهشمًا .. صوت (ستارك) يواصل الكلام :

- إن نظامنا القضائى غير مؤهل لاتخاذ قرار كهذا .. هم لا يجرءون على إنهاء حياة مريض ، حتى ولو كان مخه قد تحول إلى عجينة لا حياة فيها ولا نفع .. كيف يتقدم العلم فى ظروف كهذه ؟.. أرجو يا (سوزان) أن تفكرى

بحرص .. أعرف أنك لاتستطيعين ذلك فى اللحظة الراهنة .. لكن حاولى .. أنت تنتمين إلى صفوة العقول .. ونحن نحتاج إليك ولأمثالك ، نحن فى هذا المستشفى ومعهد (جافرسون) ..

فهل أنت على استعداد لتكريس ذكائك وجهدك ، لصالح العلم والطب والمجتمع ؟

جاهدت (سوزان) حتى رفعت جفنيها ..

وقالت شيئًا ما ..

انحنى (ستارك) مقربًا رأسه من فيها :

ـ تكلمى يا (سوزان) وسأسمعك ..

استجمعت قواها .. وبآخر حشاشة من إرادتها همست :

ـ عليك اللعنة يا .....

ثم سقط رأسها على كتفها ..

تأملها (ستارك) برهة فى حنق ممزوج بالإحباط .. كان بحاجة إلى ذكائها الحاد ، لكن لا بأس ما زالت الاستفادة ممكنة من (سوزان) ..

ورفع سماعة الهاتف طالبًا غرفة الطوارئ .....

* * *

الخميس ٢٦ فبراير الساعة ١١,٥١ مساءً :

كانت حجرة النوبتجية مؤثثة تأثيثًا بسيطًا للغاية ، حيث جلس (بيلوز) يطالع مجلة طبية حديثة ، عاجزًا عن التركيز فى الواقع .. فعقله وضميره يؤرقانه باستمرار من أجل (سوزان) ..

لقد عرف أنها دخلت المستشفى كمريضة بالتهاب الزائدة الدودية ..

وعرف أن (ستارك) هو من سيستأصلها لها .. لكنه طلب من زميل له أن يعاون (ستارك) ، لأنه لن يستطيع أن يجرى الجراحة لـ (سوزان) بهذه البساطة .. لن يكون موضوعيًا .. ثم إنه لا يشعر باطمئنان ولا يدرى لماذا ..

رفع سماعة الهاتف وسأل الممرضة :

ـ فى أية حجرة عمليات ستجرون الجراحة لـ د . (سوزان هويلر) ؟

ـ غرفة رقم (٨) ..

غريب هذا !.. يا لها من مصادفة !.. الحجرة التى قالت (سوزان) إن كل حالات الغيبوبة حدثت فيها ، وإن هناك صمامًا يتصل بخط الأكسجين لا تعرف وظيفته .. ربما كان

يخلط أول أوكسيد الكربون بالأكسجين كما تخيلت (سوزان)..

لماذا لا يتأكد بنفسه ويفحص هذا الصمام.. بينما (سوزان) فى غرفة العمليات؟.. ربما كان هذا سخيفًا لكنه ـ على الأقل ـ سيرضى ضميره..

★ ★ ★

(سوزان) الآن على ظهرها ترمق سقف ممر يتحرك فوق رأسها.. لا.. هى التى تتحرك فوق محفة تدفعها.. وتسمع أصواتًا مختلطة.. وترى رؤى متداخلة.. غرفة التشريح.. يدًا مطعونة بمقص.. وجه السفاح المجدور.. جسد (نانسى) الشاحب..

حاولت الكلام لكن صوتًا لم يخرج من حلقها..

حاولت الحركة لكن ذراعيها كانتا مسمرتين إلى جانبيها..

ها هى ذى غرفة التعقيم.. هناك جراح أمام الحوض، يلبس على وجهه قناعًا ويغتسل.. لكنها عرفته.. هو (ستارك)!..

ـ هل تريد مساعدًا أم اثنين يا سيدى؟

ـ إن واحدًا يكفى لجراحة بسيطة كهذه.. سأنتهى خلال ربع ساعة..

وتستمر المحفة فى سيرها.. وترى باب غرفة العمليات.. وترى رقم (٨)!..

يجب أن تنهض.. يجب.. لكن أيد قوية ترفعها من وسطها وقدميها إلى منضدة الجراحة.. تستجمع قوتها.. ترفع يدها اليسرى لتقول بصوت خفيض وهى تشعر أن المخدر يزول:

ـ أرجوكم.. أنا لست.. لا .....

ـ لا تقلقى.. كل شىء سيكون على ما يرام.. تنفسى بعمق!

ـ لا.. لا..

لكن قناع التخدير هوى على وجهها، وشعرت بوخزة الإبرة..

وفى الهواء رأت عينى (ستارك) تنظران لها من فوق القناع..

★ ★ ★

الطبيب المساعد متوتر عاجز عن إجراء العقد.. فوجود (ستارك) كان يثير أعصاب الجميع.. وطبيب التخدير كان يرتجف.. فهو يريد الانتهاء سريعًا من هذه الجراحة.. لقد حدثت ضربات قلب شاذة للمريضة، كادت تقتله رعبًا، ثم فجأة توقف خط الأكسجين القادم من

الحائط .. وهى أول مرة يحدث له هذا فيها ، طيلة الثمانى سنوات التى عمل فيها كطبيب تخدير .. واضطر إلى استعمال اسطوانات الطوارئ بسرعة .. كان من الممكن أن يكلفه هذا حياة المريضة ..

ـ كم بقى لكم من وقت ؟

ـ خمس دقائق ..

قالها (ستارك) وهو يعقد الخيط بأصابعه المتمرسة السريعة ..

كان هو نفسه متوتر الأعصاب .. ولقد ظن المساعد أنه هو سبب هذا التوتر ، لكن (ستارك) كان قلقًا بسبب توقف (الأكسجين) ..

ذلك الخطأ الذى لم يكن فى الحسبان ..

كان هو الوحيد الذى يعرف أن ضربات القلب غير المنتظمة معناها أن (سوزان) تلقت أول أوكسيد الكربون من خط الأكسجين ..

لكن هل نالت كفايتها حقًا ؟

الشىء الثانى الذى أثار توتره ، هو الأصوات الغريبة القادمة من أعلى .. من فوق السقف المتحرك ..

الشىء الثالث الذى أثار توتره ، كان ذلك الزحام خارج غرفة العمليات .. وهو شىء غير معتاد فى منتصف الليل .. كل هؤلاء الناس الذين يراهم بوضوح خلف زجاج الباب ..

كانت هذه هى الغرزة الأخيرة ، فألقى بماسك الإبر الصينية ، وبدأ يعقدها بيده كعادته ، حين فُتح باب الحجرة ، ورأى أربعة أشخاص يتقدمون نحوه .. وكان (بيلوز) من بينهم ..

كانوا يرتدون ثياب التعقيم ، لكن (ستارك) استطاع أن يرى الثياب الزرقاء تحت أردية التعقيم هذه .. ثياب رجال الشرطة ..

وساد الغرفة صمت رهيب ..

ـ نحن بانتظارك يا د . (ستارك) ..

رفع رأسه بعد ما أنجز عمله ..

وأدرك أن شيئًا ما كان خطأ ..

شيئًا ما كان خطأ .. على طول الخط ..

روبين كوك

١٩٧٧

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

الغيبوبة

المستشفى هو المكان الذى نحمل إليه آلامنا وجراحنا كى نتخفف منها ، لكن مستشفى (بوسطون التذكارى) يختلف كثيرًا .. إنه المكان الذى تنتهى فيه الحياة ، ويبدأ الكابوس ، وكانت الدكتورة (سوزان) هناك ، حين بدأت تشعر بأن شيئًا شريرًا يحدث .. شيئًا يفوق كل كوابيسها .. شيئًا ستعرفه حين تقرأ هذه الرواية الرائعة ..



العدد القادم : الشيطانة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع